/ سورة مريم [١ظ]

ثمانٍ وتسعون آيةً، كلُّها مكّيّة إلّا آيةَ السجدة.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بإمالة الهاء والياء[٢] وإظهار الدال.[٣] وقُرئ بفتح الهاء وإمالةِ الياء،[٤] وبتفخيمهما،[٥] وبإخفاء النون قبل الصادِ لتقارُبهما.[٦] وقد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مُفرَدةً ولا مُوازِنةً لمُفرَد فطريقُ التلفُّظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواءٌ جُعلت أسماءً للسوَر أو مَسرودةً على نمط التعديد، وإن لَزِمها التقاء الساكنين لكونه مُغتفرًا في باب الوقف قطعًا،[٧] فحقُّ هذه الفاتحة الكريمة أن يُوقَف عليها جريًا على الأصل. وقُرئ بإدغام الدال فيما بعدها لتقارُبهما في المَخرَج.[٨]

فإن جُعلت اسمًا للسورة على ما[٩] عليه إطباقُ الأكثر فمحلّه الرفع، إمّا على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، أي: مُسمًّى به. وإنّما صحَّت الإشارة إليه مع عدم جرَيان ذِكْره؛ لأنّه باعتبار كونِه على جناح الذِّكر صار في حُكم الحاضر المُشاهَد، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان"؛ أو على أنّه مبتدأ،

---

١ س: سورة مريم عليها السلام، وهي تسعون وثمان آيات.

٢ قرأ بها الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه. **النشر** لابن الجزري، ٢/٦٧-٦٨.

٣ قرأ بإظهار الدال التي في لفظ "صاد" نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/١٧.

٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة. **النشر** لابن الجزري، ٢/٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٦-٢٩٧.

٦ قرأ بها العشرة إلّا أبا جعفر. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٩١.

٧ سلف في الكلام على الآية الأولى من سورة البقرة.

٨ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢/١٧.

٩ س + هي.

خبرُه ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: المُسمّى به ذِكْر رحمة... إلخ، فإنّ ذِكْرها لمّا كان مَطلَعَ السورة الكريمة ومُعظمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنّها نفسُ ذِكْرها. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المُخاطَب، وإذ لا عِلمَ بالتسمية مِن قَبلُ فحقُّها الإخبار بها كما في الوجه الأوّل.

وإن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد حسبما جنَح إليه أهل التحقيق فـ﴿ذِكْرُ﴾... إلخ خبرٌ لمبتدأ محذوف هو ما يُنبئ عنه تعديد الحروف، كأنّه قيل: المُؤلَّف مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة مُرادًا به السورةُ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ؛ أو اسمُ إشارة أُشير به إليه تنزيلًا لحضور المادّة مَنزِلة المُؤلَّف منها، أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ. وقيل: هو مبتدأ قد حُذف خبره، أي: فيما يتلى عليك ذِكْرها.[١] وقُرئ "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ"[٢] على صيغة الماضي مِن التذكير، أي: هذا المَتلوُّ ذَكَّرها. وقُرئ "ذَكِّرْ"[٣] على صيغة الأمر.

والتعرُّض لوصف الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ تنزيل السورة عليه عليه السلام تكميل له عليه لسلام.

وقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ على أنّها مفعول لِما أُضيف إليها.[٤] وقيل: لـ"الذِّكر" على أنّه مصدر أُضيف إلى فاعله على الاتِّساع.[٥] ومعنى ذِكْر الرحمة بلوغُها وإصابتُها، كما يقال: ذكَرني معروفُ فلان، أي: بلغني.[٦] وقوله عزّ وعلا: ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل منه، أو عطف بيانٍ له.

[٢و] ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ظرف لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾. وقيل: / لـ﴿ذِكْرُ﴾[٧] على أنّه مضاف إلى فاعله اتِّساعًا لا على الوجه الأوّل[٨] لفساد المعنى.[٩] وقيل:

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١.
٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٤ انظر هذا الوجه في معاني القرآن للأخفش، ٤٣٧/٢.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.
٦ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.
٧ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٦/١٣.
٨ م: وهو كون الذِّكر مضافًا إلى مفعوله. «منه».
٩ م: لأنّ الذِّكر ليس في وقت النِّداء. «منه».

هو بدل اشتمال مِن ﴿زَكَرِيَّا﴾ كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ [مريم، ١٦/١٩].[١]

ولقد راعى عليه السلام حُسن الأدب في إخفاء دُعائِه، فإنّه مع كونه بالنسبة إليه عزّ وجلّ كالجهر أَدخَلُ في الإخلاص وأَبعَدُ مِن الرِّياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طَلَب الولد، لتوقُّفه على مبادٍ[٢] لا يَليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة، وعن غائلة مَواليه الذين كان يخافهم. وقيل: كان ذلك منه عليه السلام لضَعف الهرَم. قالوا: كان سِنُّه حينئذ ستّين، وقيل: خمسًا وستّين، وقيل: سبعين، وقيل: خمسًا وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: أكثرَ منها،[٣] كما مرّ في تفسير سورة آل عِمران.[٤]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ جملة مُفسِّرة لـ﴿نَادَىٰ﴾[٥] لا محلَّ لها مِن الإعراب. ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ إسناد الوهن إلى العَظْم لِما أنّه عماد البدن ودِعام الجَسد، فإذا أصابه الضَّعف والرخاوة أصاب كُلَّه، أو لأنّه أشدُّ أجزائه صلابة وقِوامًا وأقلُّها تأثُّرًا مِن العِلَل، فإذا وهَن كان ما وراءه أَوهَنَ. وإفراده للقصد إلى الجنس المُنبئ عن شمول الوَهْن لكلّ فردٍ مِن أفراده. و﴿مِنِّى﴾ مُتعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلْعَظْمُ﴾. وقُرئ "وَهِنَ" بكسر الهاء وبضمّها أيضًا.[٦] وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبّه عليه السلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار، وانتشارَه في الشعر وفُشوِّه[٧] فيه وأخذَه منه كلَّ مأخَذ باشتعالها، ثمّ أخرجه

---

١ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٦/١٣.

٢ ط س: مبادئ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٠/٢.

٤ في الكلام على الآية الأربعين منها.

٥ في الآية السابقة.

٦ قراءتان شاذّتان، غير منسوبتين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٧ كذا ضُبطت في نسخة المؤلّف.

مُخرجَ الاستعارة، ثم أَسند الاشتعالَ إلى مَحلّ الشَّعر ومَنبته، وأخرجه مُخرج التمييز، وأطلَق الرأسَ اكتفاءً / بما قيّد به العَظْم. وفيه مِن فنون البلاغة وكمال [٢ظ] الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: "اشتعل شيبُ رأسي" فأسنَد الاشتعال إلى الرأس -كما ذُكر- لإفادة شمولِه لكلِّها، فإنّ وِزانه بالنسبة إلى الأصل وِزان "اشتعل بيته نارًا" بالنسبة إلى "اشتعل النار في بيته"، ولزيادة تقريره بالإجمال أوّلًا والتفصيل ثانيًا ولمَزيد تفخيمه بالتنكير. وقُرئ بإدغام السين في الشين.[١]

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم أكن بدعائي إيّاك خائبًا في وقت مِن أوقات هذا العمر الطويل؛ بل كلَّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملة معطوفة على ما قبلها، أو حال مِن ضمير المُتكلِّم، إذِ المعنى واشتعل رأسي شيبًا. وهذا توسُّل منه عليه السلام بما سلف منه مِن الاستجابة عند كلّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمة ويَستجلِب الرأفة من كِبَر السنّ وضَعْف الحال، فإنّه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يُخيِّبه أبدًا لاسيّما عند اضطراره وشدّة افتقاره.

والتعرّض في الموضوعَين لوَصْف الربوبيَّة المُنبِئة عن إضافةِ ما فيه صلاح [٤٨ظ] المَربوب، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، / لاسيّما توسيطُه بين "كان" وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمُبالغة في التضرُّع. ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دُعاؤه فليَدعُ الله تعالى بما يُناسبه مِن أسمائه وصفاتِه.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾[٢] مُترتِّب مضمونه على مضمونه، فإنّ ضَعْف القُوى وكِبَر السنّ مِن مَبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته. ومَواليه: بنو عمّه وكانوا شِرارَ بني إسرائيلَ فخاف ألّا [٣و] يُحسِنوا / خلافتَه في أُمّته ويُبدِّلوا عليهم دينهم.

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٩٢/١. ٢ في الآية السابقة.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعد موتي، مُتعلِّق بمَحذوف يَنساق إليه الذِّهن، أي: فِعلَ المَوالي مِن بعدي، أو جَور المَوالي، وقد قُرئ كذلك.[1] أو بما في المَوالي مِن معنى الوِلاية، أي: خِفتُ الذين يَلُون الأمر مِن ورائي لا بـ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى. وقُرئ "وَرَايَ" بالقصر وفتح الياء،[2] وقُرئ "خَفَّتِ المَوَالي مِن وَرَائِي"،[3] أي: قلُّوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدِّين بعدي، أو خفَّت المَوالي القادرون على إقامة مَراسم المِلّة ومَصالح الأمّة مِن خفَّ القوم، أي: ارتحلوا مُسرعين، أي: درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم مَن به تَقوٍّ واعتضادٌ.[4] فالظرف حينئذ مُتعلِّق بـ"خفّتْ". ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلِد مِن حين شبابها.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين مُتعلِّق بـ﴿هَبْ﴾ لاختلاف معنييهما، فاللام صلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مَجازًا. وتقديم الأوّل لكون مدلوله أهمَّ عنده، ويجوز تعلُّق الثاني بمحذوف وقع حالًا[5] مِن المفعول. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّل غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرِهما مِن الذوات، وقد مرّ تفصيله في أوائل سورة آل عمران، أي: أعطِني مِن مَحْض فضلِك الواسع وقدرتِك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العاديّة.

﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا مِن صُلبي. وتأخيره عن الجارَّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهِبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه مِن التشويق إلى المُؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مُستشرِفة له فعند وروده لها يتمكَّن عندها فَضْل تمكُّن، ولأنّ فيه نوعَ طُول بما بعده مِن الوصف، فتأخيرهما عن الكلّ أو توسيطهما بين الموصوف والصفة ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٦/٥؛ واللباب لابن عادل، ٨/١٣.

٢ قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ٤٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وسعيد بن جبير ومحمد بن عليّ وعليّ بن الحسَن وزيد بن ثابت والوليد بن مُسلم وابن مِقسَم والجُعفي والأهوازي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٩٣.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ وفي هامش م: إذ لو تأخّر صار صفةً له. «منه».

[٣ظ] والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ ما / ذكَره عليه السلام مِن كِبَر السنّ وضَعْف القُوى وعُقر المَرأة مُوجِب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسّط الأسباب العاديّة واستيهابه على الوجه الخارق للعادة، ولا يَقدَح في ذلك أن يكون هناك[١] داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ مِن مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حقّ مريمَ، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية، [آل عمران، ٣٨/٣]. وعدمُ ذِكره ههنا للتعويل على ذِكره هناك، كما أنّ عدم ذِكر مُقدِّمة الدعاء هناك للاكتفاء بذِكره ههنا، فإنّ الاكتفاء بما ذُكر في مَوطِن عمّا تُرك في مَوطَن آخرَ مِن النُّكت التنزيليّة.

وقوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ صفة لـ﴿وَلِيًّا﴾. وقُرئ هو وما عُطف عليه بالجزم[٢] جوابًا للدعاء، أي: يرثني مِن حيث العِلمُ والدِّين والنبوّة، فإنّ الأنبياء عليهم والسلام لا يُورِّثون المالَ، قال عليه السلام: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث، ما تركنا صدقة».[٣] وقيل: يَرِثني الحُبورة وكان عليه السلام حَبْرًا.[٤]

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يقال: ورِثه وورِث منه لغتان.[٥] وآلُ الرجل: خاصَّته الذين يَئول إليه أمرهم للقَرابة أو الصُّحبة أو المُوافَقة في الدِّين. وكانت زوجة زكريّا أختَ أمّ مريمَ، أي: ويَرِث منهم المُلكَ.

قيل: هو يعقوبُ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام. وقال الكلبيُّ ومُقاتل: هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نسل سليمانَ عليه السلام، وكان آلُ يعقوبَ أخوال يحيى بن زكريّا، قال الكلبيّ: كان بنو ماثانَ رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم، وكان زكريّا رئيسَ الأحبار يومئذ، فأراد أن يَرِثه ولدُه حُبورتَه ويَرِثَ من بني ماثانَ مُلكَهم.[٦]

---

١ س: هنا.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨٨/١ (٩)؛ وصحيح البخاري، ٧٩/٤ (٣٠٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١٣٧٧/٣ (١٧٥٧).

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٦ هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ١٤/١٣.

وقُرئ "ويَرِثُ وارثَ آلِ يَعقُوبَ"[١] / على أنّه حال مِن المُستكِنّ في ﴿يَرِثُ﴾، [٤و]
وقُرئ: "أُوَيْرِثَ آلِ يَعقُوبَ"[٢] بالتصغير، ففيه إيماء إلى وِراثته عليه السلام، لِما يَرِثه في حالة صِغَره. وقُرئ: "وَارِثٌ مِن آلِ يَعقُوبَ"[٣] على أنّه فاعلُ ﴿يَرِثُنِى﴾ على طريقة التجريد، أي: يَرِثُني به وارث. وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ.[٤]

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مَرضيًّا عندك قولًا وفعلًا. وتوسيطُ ﴿رَبِّ﴾ بين مفعولَي الجَعْل للمُبالغة في الاعتناء بشأن ما يَستدعيه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يُخاطِبه عليه السلام بذلك بالذات؛ بل بواسطة المَلَك، على أن يَحكيَ له[٥] عليه السلام هذه العبارة عنه عزّ وجلّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، [الزمر، ٥٣/٣٩]. وقد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٦]

وهذا جواب لندائه عليه السلام ووعدٌ بإجابة دعائه، لكن لا كُلًّا كما هو المُتبادر مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ إلخ، [الأنبياء، ٩٠/٢١]؛ بل بعضًا حسبما تقتضيه المَشيئة الإلهيّة المَبنيّة على الحِكَم البالغة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مُستجابي الدعوةِ لكنّهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات. ألا يُرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه السلام في حقّ أبيه، وإلى دعوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: «وسألتُه ألّا يُذيق بعضهم بأس بعض فمَنعنيها».[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجَحدري. الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٣ مع جزم الفعل. قراءة شاذّة، مرويّة عن علي وابن عبّاس ويحيى بن يعمر والحسن وقتادة والجَحدري وجعفر بن محمّد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١١٩٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.

٥ م: أي: المَلَك. «منه».

٦ في الكلام على الآية التاسعة والثلاثين منها.

٧ مسند أحمد، ٤٤٩/٣٦ (٢٢١٣٦)؛ سنن الترمذي، ٤٧١/٤ (٢١٧٥)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٨٠/٢ (٢١٧١).

وقد كان مِن قضائه عزّ وعلا أن يَهَبه يحيى نبيًّا مَرضيًّا ولا يَرِثه، فاستُجيب دعاؤُه في الأوّل دون الثاني حيث قُتل قبل موت أبيه عليهما السلام على ما هو المشهورُ. وقيل: بقي بعده بُرهةً فلا إشكالَ حينئذ.[١]

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام. وفي تخصيصه به حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شريكًا له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحد قبله بيحيى، مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له[٢] عليه السلام، فإنّ التسمية بالأسامي البديعة المُمتازة عن أسماء / سائر الناس تنويه بالمُسمّى لا محالةَ. وقيل: سَميًّا شبيهًا في الفضل والكمال كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم، ٦٥/١٩]، فإنّ المُتشارِكين في الوصف بمنزلة المُتشارِكين في الاسم.[٣] [٤ظ]

قالوا: لم يكن له عليه السلام مِثْل في أنّه لم يعصِ الله تعالى، ولم يَهُمَّ بمعصية قطّ، وأنّه وُلِد مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وأنّه كان حَصورًا. فيكون هذا إجمالًا لِما نزَل بعده مِن قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران، ٣٩/٣]. والأظهر أنه اسم أعجمي، وإن كان عربيًّا فهو مَنقول عن الفعل كـ"يَعمَرَ" و"يَعيشَ".[٤] قيل: سُمِّي به لأنّه حيِيَ به رحِمُ أُمّه، أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته.[٥]

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذ؟ فقيل: ﴿قال﴾: ﴿رَبِّ﴾. ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسُّط المَلَك، للمبالغة في التضرُّع والمناجاة، والجِدِّ في التبتُّل إليه تعالى، والاحترازِ عمّا عسى يُوهِم خطابُه للمَلَك مِن توهُّم أنّ عِلمه تعالى بما يَصدُر عنه مُتوقِّف على توسُّطه، كما أنّ عِلم البشر بما يصدُر عنه سبحانه مُتوقِّف على ذلك في عامّة الأوقات.

---

١ ما وجدتُه فيما وقفتُ عليه من المصادر.

٢ السياق: وفي تخصيصه به... مَزيد تشريف...

٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٦/٣.

٤ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٦/٣.

٥ القولان في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦١/٢.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى "كيف" أو "مِن أين". و"كان" إمّا تامّة و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام مُتعلِّقتان بها. وتقديم الجارّ على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِّر، أي: كيف أو مِن أين يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن تتعلَّق اللام بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٌ﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفةً له، أي: أنّى يحدُث كائنًا لي غلام؛ أو ناقصة[1] اسمُها ظاهر، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿لِي﴾ مُتعلِّق بمحذوف، كما مرّ؛ أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ نَصْب على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال مِن ضمير المُتكلِّم بتقدير "قد"، وكذا / قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حال منه مُؤكِّدة للاستبعاد إثرَ [٥و] تأكيد، أي: كانت امرأتي عاقرًا لم تلِد في شبابها وشبابي، فكيف؟ وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا مِن أجل كِبَر السنِّ جَساوة وقُحولًا[2] في المَفاصل والعِظام؛ أو بلغتُ مِن مَدارج الكِبَر ومراتبه ما يُسمَّى عِتيًّا مِن عتا يعتو، وأصله: "عُتُوو" كـ"قُعود"، فاستُثقل توالي الضمّتين والواوين فكُسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ قُلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء وسَبْقِ إحداهما بالسكون، وكُسرت العين إتباعًا لها لِما بعدها. وقُرئ بضمِّها.[3]

ولعلّ البدايةَ ههنا بذِكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمرانَ لِما أنّه قد ذُكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنّما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكِبَر تتمّة لِما ذُكر قبلُ، وأمّا هنالك فلم يَسبِق في الدُّعاء ذِكر حاله، فلذلك قدّمه على ذِكر حال امرأته لِما أنّ المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب، وإنّما قاله عليه السلام مع سَبْق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقُدرة الله عزّ وجلّ -لاسيّما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران- استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبًا مِنها واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنّه مِن مَحض لُطف الله عزّ وجلّ وفضله، مع كونه في نفسه مِن الأمور المُستحيلة عادة لا استبعادًا له.

---

١ السياق: و"كان" إمّا تامّة... أو ناقصة...

٢ جسا الرجُل جَسْوًا وجُسُوًّا: صلُب. ويد جاسية: يابسة العظام قليلة اللحم. وجسا الشيخ جُسُوًّا: بلغ غاية السِّنّ. والقُحول: اليُبس. لسان العرب لابن منظور، «جسا»، «قحل».

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.

وقيل: إنّما قاله ليُجابَ بما أُجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويَرتدع المُبطلون.[١] وقيل: كان ذلك منه عليه السلام استفهامًا عن كيفيّة حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً، وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد.[٢]

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

[٥ظ] / ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مَبنيّ على سؤال نشأ ممّا سلف. والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ مُقحمَة كما في: "مِثلُك لا يَبخل"، مَحلُّها:

إمّا النصب على أنّه مَصدر تشبيهيّ[٣] لـ﴿قَالَ﴾ الثاني، و"ذلك" إشارة إلى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابقِ لا إلى قولٍ آخرَ شُبِّه هذا به، وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢].

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة مُقرِّرة للوعد المذكور دالّة على إنجازه داخلة في حيّز ﴿قَالَ﴾ الأوّل. كأنّه قيل: قال الله عزّ وجلّ: مِثلَ ذلك القول البديع قلتُ، أي: مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ، هو عليّ خاصّةً هيّن وإن كان في العادة مُستحيلًا. وقُرئ "وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ"،[٤] فالجملة حينئذ حال مِن ﴿رَبُّكَ﴾، والياء عبارة عن ضميره -كما ستعرِفه- أو اعتراض، وعلى كلّ حال فهي مُؤكِّدة ومُقرِّرة لِما قبلها.

ثمّ أُخرِج القول الثاني مُخرَج الالتفات جريًا على سَنن الكبرياء لتربية المَهابة وإدخال الروعة، كقول الخلفاء: "أميرُ المؤمنين يرسم لك" مكانَ "أنا أرسم"،[٥] ثمّ أُسند إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفًا له وإشعارًا بعِلّة الحُكم. فإنّ تذكير جرَيان أحكام ربوبيّته تعالى عليه عليه السلام مِن إيجاده مِن العدم وتصريفِه في أطوار الخلق مِن حال إلى حال شيئًا فشيئًا

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

٢ ما وجدته فيما وقفت عليه من المصادر.

٣ م: أي: نعتٌ لمصدر مؤكِّد له، أي: حالٌ قولًا كائنًا مثل ذلك القول. «منه».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به ممّا يَقلَع أساسَ استبعاده عليه السلام لحصول الموعود ويُورثه عليه السلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالةَ.

ثمّ التُفت مِن ضمير الغائب العائد إلى الربّ إلى ياء العظمةِ إيذانًا بأنّ مَدار كونه هيّنًا عليه سبحانه هو القدرة الذاتيّة لا ربوبيّتُه تعالى له عليه السلام خاصّة وتمهيدًا لِما يَعقُبه. وقيل: ذلك إشارة إلى مُبهَم يُفسِّره قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. ولا يَخرُج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنّها لا تدخُل بين المُفسِّر والمُفسَّر.

/ وإمّا الرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، و"ذلك" إشارةٌ إلى ما تقدَّم [٦و] مِن وعده تعالى، أي: قال عزّ وعلا: الأمر كما وعدتُ، وهو واقع لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مُقرِّر لمضمونه. والجملة المَحكيّة على القراءة الثانية[2] معطوفة على المَحكيّة الأولى، أو حال مِن المُستكِنّ في الجارّ والمجرور.

وأيًّا ما كان فتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينهما مُشعِر بمَزيد الاعتناء بكلّ منهما. والكلام في إسناد القول إلى الربّ ثمّ الالتفاتِ إلى التكلُّم كالذي مرّ آنفًا. وقيل: "ذلك" إشارة إلى ما قاله زكريّا عليه السلام،[3] أي: قال تعالى: الأمرُ كما قلتَ تصديقًا له فيما حكاه مِن الحالة المُباينة للولادة في نفسه وفي امرأته. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مَسوق لإزالة استبعاده بعد تقريره، أي قال تعالى: هو مع بُعده في نفسه عليّ هيّن. والقراءة الثانية[4] أَدخَل في إفادة هذا المعنى، على أنّ الواو للعطف، وأمّا جَعْلها للحال فمُخِلّ بسداد المعنى؛ لأنّ مآله تقريرُ صعوبته حالَ سهولته عليه تعالى، مع أنّ المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه.

---

١ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إمّا النّصب". «منه».

٢ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/١.

٤ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جملة مستأنَفة مُقرِّرة لِما قبلها، والمراد به ابتداء خَلْقِ البشر، إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المَحضِ، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، وإنّما لم يُنسَب ذلك إلى آدمَ عليه السلام، وهو المخلوق مِن العدم حقيقةً بأن يقال:[1] وقد خلقتُ أباك أو آدمَ مِن قبل ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس، حيث نبَّه على أنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر / له حظٌّ مِن إنشائه عليه السلام مِن العدم، إذ لم تكن فطرته البديعة [٦٥ظ] مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أنموذجًا مُنطويًا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواءً إجماليًا مُستتبعًا لجريان آثارِها على الكلّ، فكان إبداعُه عليه السلام على ذلك الوجه إبداعًا لكلّ أحد مِن فروعه كذلك.

ولمّا كان خَلْقه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذرِّيّته أبدعَ مِن أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه، كما هو المفهوم مِن نسبة الخلق المذكور إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه، وكان عدم زكريَّا حينئذٍ أظهرَ عنده وأجلى، وكان حاله أَولى بأن يكون مِعيارًا لحال ما بُشِّر به، نُسِب الخَلْق المذكور إليه،[2] كما نُسب الخَلْق والتصوير إلى المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧] توفيةً لمَقام الامتنانِ حقَّه، فكأنّه قيل: وقد خلقتُك مِن قبلُ في تضاعيف خَلْق آدمَ ولم تكن إذ ذاك شيئًا أصلًا؛ بل عدمًا بحتًا ونفيًا صِرْفًا.

هذا، وأمّا حَمْل الشيء على المُعتدّ به، أي: ولم تكن شيئًا مُعتدًّا به،[3] فيأباه المقام ويَردّه نظم الكلام. وقُرئ "خَلَقْنَاكَ".[4]

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقّق المَسئول ووقوع الحبَل. ولم يكن هذا السؤال منه عليه السلام لتأكيد البِشارة وتحقيقها كما قيل.[5]

---

١ السياق: وإنّما نُسِب... بأن يُقال...

٢ السياق: ولمّا كان خلقه... نُسِب الخلق...

٣ أجاز حَمْله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٧/٣.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٥ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٢٢/١٣.

فإنّ ذلك ممّا لا يَليق بمَنصِب الرسالة، وإنّما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق، حيث كانت البِشارة مُطلَقة عن تعيينه، وهو أمر خفيّ لا يُوقَف عليه، فأراد أن يُطلعَه الله عليه ليَتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر مِن حين حُدوثها، ولا يُؤخّرَه إلى أن تظهَر ظهورًا مُعتادًا.

وقد مرَّت الإشارة في تفسير سورة آل عمران[1] إلى أنّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البِشارة بُرهةٌ مِن الزمان، لِما يروى أنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستَّة أشهر أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنّ دعاء زكريّا عليه السلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران، ٣/٣٨]، وهي إنّما وَلدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشرِ سنينَ أو بنت ثلاثَ عشرةَ سنةً.[2]

/ والجَعْل إبداعي، واللام مُتعلِّقة به. وتقديمُها على المفعول به لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمُقدَّم والتشويق إلى المُؤخَّر، أو بمَحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخر لكان صفةً لها. وقيل: بمعنى التصيير المُستدعي لمفعولين، أوّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظرفُ. وتقديمُه لأنّه لا مُسوّغ لكون ﴿ءَايَةً﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سِوى تقديمِ الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورودِ الناسخ.[3] [٧و]

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ألّا تَقدِر على أن تُكلِّمهم بكلام الناس مع القدرة على الذِّكر والتسبيح. ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيّامهنّ للتصريح بها في سورة آل عمران.[4] ﴿سَوِيًّا﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيد لكون انتفاءِ التكلُّم بطريق الاضطرار دون الاختيار، أي: تُمنَع الكلامَ فلا تُطيق به حالَ كونك سويَّ الخلق سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: مِن المُصلّى أو مِن الغرفة، وكانوا مِن وراء المِحراب ينتظرونه أن يَفتح لهم الباب فيدخلوه ويُصلّوا إذ خرج عليهم

---

١ في الكلام على الآية الحادية والأربعين منها.

٢ سيأتي هذا وتخريجه في الكلام على مريم، ٢٢/١٩.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٥ (آل عمران، ٤١/٣).

٤ في آل عمران، ٤١/٣.

مُتغيِّرًا لونُه فأنكروه وقالوا: ما لك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أومأ إليهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران، ٣/٤١]. وقيل: كتب على الأرض.[١] و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾: إمّا مُفسِّرة لـ"أوحى"، أو مصدريّة. والمعنى: أن صلُّوا، أو بأن صلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبي العالية: أنّ المراد بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر.[٢] أو نزِّهوا ربّكم طرفَي النهار. ولعلّه كان مأمورًا بأن يُسبِّح شكرًا ويأمرَ قومه بذلك.[٣]

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ استئناف طُويَ قبله جُمل كثيرة مُسارَعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: قلنا: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الحُكم: النبوّة، استنبأه وهو ابن ثلاثِ سنينَ.[٤] وقيل: الحُكم: الحِكمة وفَهْم التوراة والفقه في الدِّين.[٥] رُوي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعب خُلِقنا.[٦] [٧ظ]

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على الحُكم. وتنوينه للتفخيم، وهو التحنُّن والاشتياق، ومِن مُتعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مُؤكِّدةً لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفَخامة الإضافيّة، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنةً مِن جنابنا أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة مِن الذُّنوب أو صدَقة تصدَّقنا به على أبويه أو وفَّقناه للتصدّق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصي.

---

١ مَرويٌّ عن مجاهد وابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٤٧٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٨.

٢ لم أجده فيما وقفت عليه من المصادر.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٢.

٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢١؛

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٨.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٤٧٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٨.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ عطف على ﴿تَقِيًّا﴾ أي: بارًّا بهما لطيفًا بهما مُحسِنًا إليهما. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ مُتكبِّرًا عاقًّا لهما أو عاصيًا لربّه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ مِن أن يَناله الشيطانُ بما يَنال به بني آدمَ. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ مِن هول القيامة وعذاب النار.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنَف خُوطِب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمر بذِكر قصّة مريمَ إثرَ قصّةِ زكريّا لِما بينهما مِن كمال الاشتباك. والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ السورة الكريمة لا القرآن، إذ هي التي صُدِّرت بقصّة زكريّا المستتبعة لذِكر قصّتها وقَصص الأنبياء المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها[1] ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: نبأَها، فإنّ الذِّكر لا يَتعلَّق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ ظرف لذلك المُضاف، لكن لا على أن يكون المأمور به ذِكرَ نبئها عند انتباذِها فقط؛ بل كلُّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيِّز الظرف مُتمِّم للنبأ. وقيل: بدلُ اشتمالٍ مِن مريمَ، على أنّ المراد بها نبؤها، فإنّ الظروف مُشتمِلة على ما فيها.[2] وقيل: بدلُ الكلّ، على أنّ المراد بالظرف ما وقَع فيه. وقيل: ﴿إِذ﴾ بمعنى "أنْ" المصدريّة كما في قولك: "أكرمتُك إذ لم تُكرمني"، أي: لأنْ لم تُكرمني، / فهو بدلُ اشتمالٍ لا محالةَ.[3] [٩٨و]

---

١ ط س - فيها.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٢/٢.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ مُتعلِّق بـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ مفعول له[١] باعتبار ما في ضمنه مِن معنى الإتيانِ المُترتِّب وجودًا واعتبارًا على أصل معناه[٢] العامل في الجارّ والمجرور، وهو السرّ في تأخيره[٣] عنه، أي: اعتزلتْ وانفردتْ منهم وأتتْ مكانًا شرقيًّا مِن بيت المَقدِس أو مِن دارها لتتخلّى هنالك للعبادة.

وقيل: قعدتْ في مَشْرَقة[٤] لِتغتسلَ مِن الحيض مُحتجبةً بحائط أو بشيء يَستُرها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾. وكان مَوضِعها المَسجِد فإذا حاضتْ تحوَّلتْ إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المَسجِد، فبينا هي في مُغتسَلها أتاها المَلَك عليه السلام في صورة آدميّ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جَعْدِ الشَّعر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام،[٥] عُبِّر عنه بذلك توفيةً للمَقام حقَّه. وقُرئ بفتح الراء[٦] لكونه سببًا لِما فيه رَوحُ العباد الذي هو عُدّة المُقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٨٨-٨٩].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سويَّ الخلق كاملَ البنية لم يَفقِد مِن حِسان نعوت الآدميّة شيئًا. وقيل: تمثَّل في صورة تِرْب لها اسمه يوسفُ مِن خدَم بيت المَقدِس،[٧] وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يُلقى إليها مِن كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة المَلَكيّة لنفرتْ منه ولم تستطع مُفاوضته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لتهيج شهوتُها فتنحدر نطفتُها إلى رَحِمها،[٨] فمع مخالفته لمَقام بيان آثار القُدرة الخارقة للعادة يُكذِّبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾؛ فإنّه شاهد عَدْل بأنّه لم يَخطُر ببالها شائبة مَيْل ما إليه فضلًا

---

١ وفي هامش م: أي:لـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. «منه».

٢ وفي هامش م: وهو الانفراد؛ لأنّ الإشارة إنّما تحصل بعده. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: تأخير ﴿مَكَانًا﴾ من الجارّ والمجرور. «منه».

٤ س: شُرفة.

٥ القول بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦-٨٧.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٩/٣.

٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.

عمّا ذُكر مِن الحالة المُترتِّبة على أقصى مراتب المَيْل والشهوة. نعم كان تمثيله على ذلك الحُسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسَبر عِفَّتها، ولقد ظهَر منها مِن الورع والعَفاف ما لا غايةَ وراءه. وذِكرُه تعالى بعنوان الرحمانيّة للمُبالغة في العِياذ به تعالى واستجلابِ آثار الرحمة الخاصَّة التي هي العِصمةُ ممّا دَهِمها.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتَّقي الله تعالى وتُبالي بالاستعاذة به. / وجواب الشرط مَحذوف ثقةً بدلالة السياق عليه، أي: فإنّي عائذة به، أو فتَعوَّذ بتعوُّذي، أو فلا تتعرَّض لي. [٨ظ]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أنّي لست ممّن يُتوقَّع منه ما تَوهَّمتِ مِن الشرّ، وإنّما أنا رسول ربّك الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي: لأكون سببًا في هِبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوز أن يكون ذلك حكايةً لقوله تعالى، ويُؤيِّده القراءة بالياء.[1] والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فإنّ هِبة الغلام لها مِن أحكام تربيتها. وفي بعض المَصاحف "أَمَرَني أَنْ أَهَبَ لكِ غُلَامًا".[2] ﴿زَكِيًّا﴾ طاهرًا مِن الذُّنوب، أو ناميًا على الخير، أي: مُترقِّيًا مِن سنّ إلى سنّ على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ كما وصفتَ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنّه لم يُباشرني بالنكاح رجل. وإنّما قيل: ﴿بَشَرٌ﴾ مُبالغةً في بيان تنزُّهها مِن مَبادي الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عطف على ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى﴾ داخل معه في حُكم الحاليَّة مُفصِح عن كون المِساس عبارةً عن المباشَرة بالنكاح، أي: ولم أكن فاجرة

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

تبغي الرجالَ. وهي فَعول بمعنى الفاعل أصلها "بَغُويٌ" فأُدغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكُسرت الغين للياء. وقيل: هي فعيل بمعنى الفاعل، وإلّا لقيل: "بَغُوٌّ" كما يقال: "فلانٌ[1] نَهُوٌّ عن المُنكَر".[2] وإنما لم تَلحَقه التاء لأنّها مِن باب النسب كـ"طالق"،[3] أو بمعنى المفعول، أي: يَبغيها الرجال للفجور بها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: المَلَك تقريرًا لمَقالته وتحقيقًا لها. ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلتُ لكِ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾... إلخ استئناف مُقرِّر له، أي: قال ربّك الذي أرسلني إليك: ﴿هُوَ﴾ أي: / ما ذكرتُ لكِ مِن هِبة الغلام مِن غير أن يَمسَّك [٩و] بشرٌ أصلًا ﴿عَلَيَّ﴾ خاصّة ﴿هَيِّنٌ﴾ وإن كان مُستحيلًا عادةً لِما أنّي لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: إمّا عِلّة لمُعلَّل محذوف، أي: ولِنجعلَ وَهْب الغلام آيةً لهم وبرهانًا يَستدلّون به على كمال قدرتِنا نفعلُ ذلك؛ أو معطوفٌ على عِلّة أخرى مُضمَرة، أي: لنُبيِّن به عِظَم قدرتنا ولنجعله آية... إلخ. والواو على الأوّل اعتراضيّة. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَّا﴾ عليهم يَهتدون بهدايته ويَسترشدون بإرشاده.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مُحكَمًا قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لا بدّ مِن جريانه عليك البتّةَ، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يُقضى ويُفعلَ لتضمُّنه حِكَمًا بالغة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ جبريلُ عليه السلام في دِرعها فدخلتِ النفخة في جوفها.[4]

---

١ س - فلان.

٢ نقل هذا القول الزمخشري في الكشّاف، ٩/٣ عن كتاب التمام لابن جنّي. ولم أجِده في مطبوعه.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٤/٢.

قيل: إنّه عليه السلام رفَع دِرعَها فنفخ في جيبه[١] فحمَلت.[٢] وقيل: نفَخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال. وقيل: إنّ النفخة كانت في فيها.[٣] وكانت مدَّةُ حملها سبعةَ أشهر. وقيل: ثمانيةً، ولم يعِش مولود وُضع لثمانية أشهر غيره. وقيل: تسعةَ أشهُر. وقيل: ثلاثَ ساعات.[٤] وقيل: ساعةً كما حملتْ وضعَته.[٥] وسِنُّها حينئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.[٦] وقيل: عشرَ سنينَ، وقد حاضت حيضتَين.[٧]

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، كما في قوله:

تـــدوسُ بـنـا الـجَـمـاجـمَ والـتَّـريـبـا[٨]

فالجارّ والمجرور في حيّز النصب على الحاليّة، أي: فانتبذتْ مُلتبِسةً به ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدًا مِن أهلها وراء الجبل. وقيل: / أقصى الدار.[٩] وهو الأنسبُ بقِصر مُدّة الحَمْل. [٩ظ]

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها، وهو في الأصل منقول مِن "جاء"، لكنّه لم يُستعمَل في غير كـ"آتى" في "أعطى".[١٠] وقُرئ "المِخَاضُ" بكسر الميم.[١١] وكلاهما مصدر "مَخِضتِ المرأةُ" إذا تحرّك الولدُ في بطنها للخروج.[١٢]

---

١ س: جيبها.

٢ مَرويّ عن السدِّي بلفظ قريب في **جامع البيان للطبري**، ١٥/٤٩٠-٤٩١. وهو بلا نسبة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٢٢٤. وعن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

٣ القولان في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٢٢٤.

٤ الأقوال السابقة بلا نسبة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٢٢٤-٢٢٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٢٢٤؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

٦ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

٧ القول في **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/٢٢٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

٨ عجز بيت لأبي الطيِّب المتنبّي، وصدره:

فـمـرَّت غـيـر نـافـرة عـلـيـهـم

والبيت في **شرح الواحدي لديوان المتنبّي**، ٢/٨٤٦. ومثّل الزمخشري بعجُزه على ما نحن فيه في **الكشّاف**، ٣/١٠. يصف المتنبي خيلًا ذكرها في البيت قبله. وقال الواحدي في معنى هذا البيت: «أي: وطِئت رءوسهم وصدورَهم، فنحن عليها، ولم تنفِر عنهم».

٩ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

١٠ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأفطس عن ابن كثير وابن جُبير عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٩٨.

١٢ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٠؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمِد عليه عند الوِلادة، وهو ما بين العِرْق والغُصن. وكانت نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ وكان[١] الوقت شتاءً. والتعريف إمّا للجنس أو للعهد؛ إذ لم يكن ثمَّة غيرُها وكانت كالمُتعالَم عند الناس. ولعلّه تعالى ألهمها ذلك ليُريَها مِن آياتها ما يُسكِّن رَوْعتها ويُطعِمها الرُّطَب الذي هو خُرْسة النُّفَساء المُوافقة لها.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم مِن مات يَماتُ، كـ"خِفتُ". وقُرئ بضمّها[٢] مِن مات يموتُ. ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الوقت الذي لقِيتُ فيه ما لقِيتُ. وإنّما قالته -مع أنّها كانت تعلَم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام مِن الوعد الكريم- استحياءً مِن الناس وخوفًا مِن لائمتهم، أو حِذارًا مِن وقوع الناس في المعصية بما تكلَّموا فيها، أو جريًا على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم، كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أنّه أخذ تِبْنة مِن الأرض فقال: «يا ليتني هذه التِّبنة ولم أكن شيئًا»،[٣] وعن بلال أنّه قال: «ليت بلالًا لم تلِده أمُّه».[٤]

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أي: شيئًا تافهًا شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به أصلًا. وقُرئ بالكسر.[٥] قيل: هما لغتان في ذلك كـ"الوَتر" و"الوِتر".[٦] وقيل: هو بالكسر اسم لِما يُنسى كـ"النِّقْض" اسم لما يُنقض، وبالفتح مصدر سُمِّي به المفعول مبالغة.[٧] وقُرئ بهما مهموزًا،[٨] مِن "نسأتُ اللَّبن" إذا صببتَ عليه الماء فصار مُستهلَكًا فيه. / وقُرئ "نَسًا"[٩] كـ"عصًا". [١٠و]

---

١ ط س: كانت.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

٣ **شرح السنّة** للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ **واللباب** لابن عادل، ١٣/٤١.

٤ **المُصنَّف** لابن أبي شيبة، ١/٢٠١ (٢٣٠٧)؛ **شرح السنّة** للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ **واللباب** لابن عادل، ١٣/٤١.

٥ قرأ بها العشرة إلّا حمزة وعاصمًا في رواية حفص عنه. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٦ ذكر ذلك الفرّاء في **معاني القرآن**، ٢/١٦٤، ونقله عنه الزمخشري في **الكشّاف**، ٣/١١.

٧ نقله عن ابن الأنباري ابنُ عادل في **اللباب**، ١٣/٤١.

٨ قراءتان شاذّتان: بفتح النون مع الهمز مرويّة عن محمّد بن كعب القُرظي وبكر بن حبيب، وبكسر النون مع الهمز مرويّة عن نوفل. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٩٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب. **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٥٨٢؛ **واللباب** لابن عادل، ١٣/٤٢.

﴿مَنسِيًّا﴾ لا يَخطُر ببال أحد مِن الناس، وهو نعتٌ للمبالغة. وقُرئ بكسر الميم[١] إتباعًا له بالسين.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريلُ عليه السلام ﴿مِن تَحْتِهَا﴾. قيل: إنّه كان يَقبَل الولد.[٢] وقيل: مِن تحتها، أي: مِن مكان أسفلَ منها تحت الأَكَمَة.[٣] وقيل: مِن تحت النخلة.[٤] وقيل: ناداها عيسى عليه السلام.[٥] وقُرئ "فَخَاطَبَهَا مَنْ تَحْتَهَا"[٦] بفتح الميم. ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي: لا تَحزَني، على أنّ "أنْ" مُفسِّرة؛ أو بألّا تَحزني، على أنّها مصدريّة قد حُذف عنها الجارّ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ أي: بمكان أسفل منك. وقيل: تحت أمركِ إنْ أمرْتِ بالجَري جرى، وإن أمرتِ بالإمساك أَمسَك.

﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا صغيرًا حسبما رُوي مَرفوعًا، قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عَذْب فجرى جَدْولًا.[٧] وقيل: فعَله عيسى عليه السلام.[٨] وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله عزّ وجلّ فيه الماءَ حينئذ كما فعَل مِثلَه بالنخلة، فإنّها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلًا عن الثمر، وكان الوقت شتاءً، فجعَل الله تعالى[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩.

٢ أي: يَقبَله كالقابلة. والقول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٤ مَرويٌّ عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٥ مَرويٌّ عن مجاهد والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥. وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زِرّ بن حُبيش وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٩٩.

٧ وهو مَرويٌّ أيضًا عن الضحّاك وقتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠١/١٥-٥٠٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥.

٨ مَرويٌّ عن سعيد بن جُبير والحسن ومجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٣/١٥-٥٠٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٩ س - تعالى.

لها إذ ذاك رأسًا وخُوصًا[١] وثمرًا.[٢] وقيل: كان هناك ماءٌ جارٍ.[٣] والأوّل هو المُوافِق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر مِن النظم الكريم.

وقيل: ﴿سَرِيًّا﴾، أي: سيِّدًا نبيًّا رفيعَ الشأن جليلًا وهو عيسى عليه السلام.[٤] فالتنوين للتفخيم، والجملة تعليل لانتفاء الحُزْن المفهوم مِن النهي عنه، والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾

﴿وَهُزِّي﴾ هزُّ الشيء: تحريكُه إلى الجهات المُتقابلة تحريكًا عنيفًا مُتدارِكًا. والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجَذْب والدفع،[٥] / لقوله تعالى: ﴿إِلَيْكِ﴾ أي: إلى جهتكِ. والباء في قوله عزّ وعلا: ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: صلة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾... إلخ [البقرة، ٢/١٩٥]. قال الفرّاء: «تقول العرب: هَزّه وهزّ به وأخذ الخِطامَ وأخذ بالخِطام»؛[٦] أو لإلصاق الفعل بمدخولها، أي: افعلي الهزَّ بجِذعها، أو هُزّي الثمرة بهزّه. وقيل: هي مُتعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول الهَزّ، أي: هُزّي إليك الرُّطَب كائنًا بجِذعها.[٧] ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أي: تُسقِط النخلة ﴿عَلَيۡكِ﴾ إسقاطًا مُتواترًا حسَب تواتُر الهزّ. [١٠ظ]

وقُرئ "تُسْقِطْ"[٨] و"يُسْقِطْ"[٩] مِن الإسقاط بالتاء والياء، و"تَتَسَاقَطْ"[١٠] بإظهار التاءين،

---

١ الخوص: ورق النخل. لسان العرب لابن منظور، «خوص».

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٥.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٤٥.

٤ مَرويٌّ عن الحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٥٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١١.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٥.

٦ معاني القرآن للفرّاء، ٢/١٦٥؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٦.

٧ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٤٦.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

و"تَسَاقَطْ"[١] بطرح الثانية، و"تَسَّاقَطْ"[٢] بإدغامها في السين، و"يَسَّاقَطْ"[٣] بالياء كذلك، و"تَسْقُطْ"[٤] و"يَسْقُطْ"[٥] مِن السُّقوط. على أنّ التاء في الكلّ للنخلة والياءَ للجِذع.

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ على القراءات الثلاث الأُوَل مفعول، وعلى الستّ البواقي تمييز. وقوله تعالى: ﴿جَنِيًّا﴾ صفة له. وهو ما قُطع قبل يُنْسه، فعيل بمعنى مفعول، أي: رُطَبًا مَجنيًا، أي: صالحًا للاجتناء. وقيل: بمعنى فاعل، أي: طريًّا طيّبًا.[٦] وقُرئ "جِنِيًّا"[٧] بكسر الجيم للإتباع.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: ذلك الرُّطبَ وماءَ السَّريّ، أو مِن الرُّطَب وعصيره، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطِيبي نفسًا وارفُضي عنها ما أحزَنك وأهمَّك، فإنّه تعالى قد نزَّه ساحتَك عمّا اختلج في صدور المُتَقيّدين بالأحكام العاديّة، بأن أظهرَ لهم مِن البسائط العنصريّة والمُركَّبات النباتيّة ما يَخرِق العاداتِ التكوينيّة ويُرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك.

وقُرئ: "وقِرّي"[٨] / بكسر القاف، وهي لغة نجد.[٩] واشتقاقه مِن القَرار، فإنّ [١١و] العين إذا رأت ما يَسرّ النفسَ سكنتْ إليه مِن النظر إلى غيره، أو مِن القُرِّ فإنّ دَمعة السُّرور باردة ودَمعة الحُزن حارّة. ولذلك يقال: قُرّة العين وسُخْنة العين للمحبوب والمكروه.[١٠]

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٣ قرأ بها يعقوب وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٦ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩/١٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان ويحيى بن وثّاب والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٠؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ١٢/٣.

١٠ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: آدميًا كائنًا مَن كان، وقُرئ "تَرَئِنَّ"[1] على لغة مَن يقول: "لَبَّأْتُ بالحَجّ"،[2] لِما بين الهمزة والياءِ مِن التآخي. ﴿فَقُولِىٓ﴾ له إن استَنطقكِ: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا، وقد قُرئ كذلك؛[3] أو صيامًا، وكان صيامُهم بالسكوت.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: بعد أن أَخبرتُكم بنَذري، وإنّما أُكلِّم الملائكة وأناجي ربّي. وقيل: أُمِرتْ بأن تُخبرَ بنَذرها بالإشارة.[4] وهو الأظهرُ. قال الفرّاء: العرب تُسمِّي كلَّ ما وصل إلى الإنسان "كلامًا" بأيّ طريق وصَل ما لم يُؤكَّد بالمصدر، فإذا أُكِّد لم يكن إلّا حقيقةَ الكلام.[5] وإنّما أُمرتْ بذلك لكراهة مُجادلة السفهاء ومُناقلتهم والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه السلام، فإنّه نصّ قاطع في قَطْع الطَّعْن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ أي: جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهُرت مِن نَفاسها. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: حاملةً له. ﴿قَالُوا۟﴾ مُؤنِّبةً لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلتِ ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، مِن فرَى الجلدَ، أي: قطَعه؛[6] أو جئتِ مَجيئًا عجيبًا عُبِّر عنه بـ"الشيء" تحقيقًا للاستغراب.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأُخوَّة. وقيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس واللؤلئي عن أبي عمرو والحلواني عن الدُّوري عن اليزيدي عنه. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٠١.

٢ **الكلام في الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن الزُّبير وعمرو بن ميمون. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٠؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٠٢.

٤ **الكلام في الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

٥ نقله عن الفرّاء البغويُّ في **معالم التنزيل**، ٣١١/٢ (النساء، ١٦٤/٤).

٦ **الكلام في الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

كانت مِن نسله وكان بينهما ألفُ سنة. / وقيل: هو رجلٌ صالح أو طالح كان [١١ظ]
في زمانهم شبَّهوها به، أي: كنتِ عندنا مِثلَه في الصلاح، أو شتموها به.[١] ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فَرِيًّا مُنكَرًا، وتنبيه على أنّ ارتكابَ الفواحش مِن أولاد الصالحين أفحشُ.[٢]

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. والظاهر أنّها بيَّنت حينئذ نَذْرَها وأنّها بمَعزِل مِن مُحاورة[٣] الإنس حسبما أُمرت. ففيه دلالة على أنّ المأمور به بيانُ نَذْرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما ممّا لا عهدَ به.

﴿قَالُوا۟﴾ مُنكِرين لجوابها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَد فيما سلف صبيًّا يُكلِّمه عاقل. وقيل: ﴿كَانَ﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مُبهَمٍ صالح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصّة بدليل أنّه مَسُوق للتعجّب. وقيل: هي زائدة والظرف صلة ﴿مَن﴾. و﴿صَبِيًّا﴾ حال مِن المُستكِنّ فيه، أو هي تامّة أو دائمة،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ٤/١٧].

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على سؤال نشأ مِن سياق النظم الكريم، / كأنه قيل: [٥١ظ]
فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. أنطَقه الله عزّ وجلّ بذلك آثرَ ذي أثير[٥] تحقيقًا للحقّ وردًّا على مَن يزعُم ربوبيّته. قيل: كان المُستنطِق لعيسى زكريا عليهما السلام.[٦] وعن السدّي رضي الله عنه:

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٦.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٦.
٣ ط س: مجاورة.
٤ الأقوال وتفصيل الكلام على "كان" ههنا بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٣/٥٤-٥٥.
٥ آثر ذي أثير: أوّل كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «أثر».
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣.

والكلام على زيادتها في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٢/٧-٨.

لمّا أشارت إليه غضِبوا وقالوا: لَسُخرِيَتُها بنا أشدُّ علينا ممّا فعلتِ.[١] ورُوي أنّه عليه السلام كان يَرضَع فلمّا سمِع ذلك ترَك الرَّضاع وأقبَل عليهم بوجهه واتّكأ على يساره وأشار بسبّابته فقال ما قال... إلخ.[٢] وقيل: كلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مَبلغًا يتكلّم فيه الصبيان.[٣]

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا مُعلِّمًا للخير. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إمّا باعتبار ما سبَق في القضاء المحتوم، أو بجَعْل ما في شرَف الوقوع لا محالةَ واقعًا. / وقيل: أكمَله الله عقلًا واستنبأه طفلًا.[٤] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [١٢و] أي: حيثما كنتُ ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أمرني بها أمرًا مُؤكَّدًا، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن مَلكتُه، أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾،[٥] أي: جعلني بارًّا بها، وقُرئ بالكسر على أنّه مصدرٌ وُصف به مبالغةً، أو منصوبٌ بمُضمَر دلّ عليه ﴿أَوْصَٰنِي﴾،[٦] أي: وكلّفني بِرًّا، ويُؤيّده القراءةُ بالكسر والجرّ عطفًا على الصلاة والزكاة، والتنكيرُ للتفخيم. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عنيدًا[٧] لله تعالى لفَرْط تكبّره.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى. على أنّ التعريف للعهد، والأظهرُ أنّه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه، فإنّ إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضدّه لأضداده، كما في قوله تعالى:

---

١ لم أجِده في مظانّه. وهو مَرويٌّ عنه في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٥٥.

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٣.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٥٥.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ ط س: عند.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه، ٤٧/٢٠]، فإنّه تعريض بأنّ العذاب على مَن كذَّب وتولّى.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن فُصّلت نعوته الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عُلوّ رتبته وبُعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلةَ المشاهَد المحسوس، ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يزعُمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعَله موصوفًا بأضداد ما يصفونه.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بالنصب على أنّه مصدر مؤكِّد لـ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾... إلى آخره،[1] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، وقرئ بالرفع[2] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو قول الحقّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصّة. وقيل: صفة عيسى أو بدله أو خبر ثانٍ، ومعناه / كلمةُ الله.[3] وقرئ: "قالُ الحقِّ"[4] و"قَوْلُ الحَقِّ"،[5] فإنّ "القَول" و"القُول" و"القال" في معنى واحد. [١٢ظ]

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر، والنصارى: ابن الله سبحانه. وقرئ بتاء الخطاب.[6]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحّ وما استقام له تعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عمّا بَهتوه، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا

---

١ مريم، ٣٠/١٩.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٨٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش ويحيى وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي وداود بن هند والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم ببيان أنّ شأنه تعالى إذا قضى أمرًا مِن الأمور أن[1] يعلِّق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير، فمَن هذا شأنه كيف يُتوهَّم أن يكون له ولد. وقرئ: "فَيَكُوْنَ"[2] بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ مِن تمام كلام عيسى عليه السلام. قيل: هو عطفٌ على قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[3] داخلٌ تحت القول.[4] وقد قُرئ بغير واو، وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام،[5] أي: ولأنّه تعالى ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن، ١٨/٧٢]. وقيل: معطوف على ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾.[6] ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكرتُه مِن التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضِلّ سالكُه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجَعْلهم ما يوجب الاتّفاق منشأ للاختلاف، فإنّ ما حُكي مِن مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، أو فِرَق النصارى، فقالت النَّسطوريّة: هو ابن الله، وقالت اليعقوبيّة: هو الله هبَط إلى الأرض ثمّ صعِد إلى السماء -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- وقالت المَلكائيّة: هو عبدُ الله ونبيُّه.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المختلِفون، عبّر عنهم بالموصول إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلّة الحُكم. ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن شهود يوم

---

١ وفي هامش م: خبر "أنّ".
٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.
٣ مريم، ١٩/٣٠.
٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٦٦.
٥ قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.
٦ مريم، ١٩/٣١. والقول في اللباب لابن عادل، ١٣/٦٦.

عظيم الهَول والحِساب والجزاء وهو يوم القيامة، أو مِن وقت شُهوده، / أو [١٣و]
مِن مكان الشهود فيه، أو مِن شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق، أو مِن وقت الشهادة أو مِن مكانها. وقيل: هو ما شهِدوا به في حقّ عيسى وأمِّه.[١]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجّبٌ مِن حِدّة سَمْعهم وأبصارهم يومئذ، ومعناه أنّ أسماعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة جدير بأن يُتعجَّب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ. وقيل: أمرٌ بأن يُسمِعهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه.[٢] والجارُّ والمجرور على الأوّل في موقع الرفع وعلى الثاني في حيّز النصب.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لا تُدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلِّيّة، ووَضْع الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسَّر الناس قاطبةً، أمّا المسيء فعلى إساءته وأمّا المحسِن فعلى قلّة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرغ مِن الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار. ورُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن ذلك، فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كبش أملحَ فيُذبح والفريقان ينظرون، فينادي المنادي يا أهلَ الجنّة خلود فلا موتَ ويا أهل النار / خلود فلا [١٣ظ]
موتَ، فيزداد أهل الجنّة فرحًا إلى فرح وأهل النار غمًّا إلى غمّ».[٣] و﴿إِذْ﴾ بدل

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٦/٣.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٢/٥.

مِن ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، أو ظرف لـ﴿ٱلْحَسْرَةِ﴾، فإنّ المصدر المعرّف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف؟

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي: عمّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهما جملتان حاليّتان مِن الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾،[1] أي: مستقِرّون في ذلك وهم في تَينك الحالتين، وما بينهما اعتراض، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾، أي: أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالًا متضمّنةً لمعنى التعليل.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلك ولا مِلك، أو نتوفّى الأرض ومَن عليها بالإفناء والإهلاك توَفّيَ الوارثِ لإرثه ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ عطفٌ على ﴿أَنذِرْهُمْ﴾[2] ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في السورة أو في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصّته وبلِّغها إيّاهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٩]، فإنّهم ينتمّون إليه عليه السلام، فعساهم باستماع قصّته يُقلِعون عمّا هم فيه مِن القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في كلّ ما يأتي ويذَر، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به مِن غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. والجملة استئناف مَسُوق لتعليل موجَب الأمر، فإنّ وصفه عليه السلام بذلك مِن دواعي ذِكره. ﴿نَبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مقيِّد للأوّل مخصِّص له كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء، ٤/٦٩]، أي: كان جامعًا بين الصدِّيقيّة والنبوّة، ولعلّ / هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهّم تخصيص الصدِّيقيّة بالنبوّة [١٤و] فإنّ كلّ نبيّ صدِّيق.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] مريم، ١٩/٣٩.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلُ اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وما بينهما اعتراض مقرِّر لِما قبله أو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿نَبِيًّا﴾.[2] وتعليقُ الذِّكر بالأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيها مِن الحوادث قد مرّ سِرُّه مرارًا، أي: كان جامعًا بين الأثَرتَين حين قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزرَ متلطِّفًا في الدعوة مستمِيلًا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنّ "التاء" عِوض مِن "ياء" الإضافة ولذلك لا تجتمعان، وقد قلّ: "يا أبتا" لكون "الألف" بدلًا مِن "الياء". ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له[3] وجُؤارِك إليه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر شيئًا مِن المسموعات والمُبصَرات، فيدخُل في ذلك ما ذُكر دخولًا أوّليًا، ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ أي: لا يقدر على أن يغنيَ ﴿عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ.

ولقد سلَك عليه السلام في دعوته أحسنَ مِنهاج وأقومَ سبيل، واحتجّ عليه أبدع احتجاجٍ بحُسن أدب وخُلق جميل لئلّا يركَب متن المكابرة والعِناد ولا ينكبَ[4] بالكلّيّة عن مَحَجّة الرشاد، حيث طلَب منه عِلّة عبادته لِما يستخفّ به عَقْل كلّ عاقل مِن عالم وجاهل، ويأبى الركون إليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية القاصية مِن التعظيم، مع أنّها لا تحِقّ إلّا لمَن له الاستغناء التامّ والإنعام العامّ الخالقِ الرازقِ المحيي المُميت المثيب المعاقب، ونبّه على أنّ العاقل يجب أن يفعل كلّ ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح.

والشيء لو كان حيًّا مميِّزًا سميعًا بصيرًا قادرًا على النفع والضرّ مُطيقًا بإيصال الخير والشرّ / لكن كان ممكِنًا، لَاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان [١٤ظ] أشرفَ الخلائق، لِما يراه مِثلَه في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع مِن حجَر أو شجر ليس له مِن أوصاف الإحياءِ عين ولا أثَر؟

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ ط س - له.

٤ وفي هامش م: نكب عنه: عدَل، كـ"نصَر" و"فرِح". قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نكب».

ثمّ دعاه إلى أن يتّبعه ليهديَه إلى الحقّ المبين، لِما أنّه لم يكن محظوظًا مِن العِلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السوي مصدِّرًا لدعوته بما مرّ مِن الاستمالة والاستعطاف حيث قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعِلم الفائق وإن كان كذلك؛ بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرفَ بأحوال ما سلكاه مِن الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا موصِلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عمّا كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلّ عاقل ببيان أنّه مع عرائه عن النفع بالمرّة مستجلِبٌ لضَرر عظيم، فإنّه في الحقيقة عبادة الشيطان لِما أنّه الآمر به، فقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ فإنّ عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذي يُسوِّلها لك ويغريك عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ تعليل لموجَب النهي وتأكيد له ببيان أنّه مستعصٍ على ربّك الذي أنعَم عليك بفنون النِّعم، ولا ريبَ في أنّ المطيع للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيق بأن يُستردّ منه النعم ويُنتقَم منه. والإظهار في موقع[1] الإضمار لزيادة التقرير، والاقتصار على ذِكر عصيانه مِن بين سائر جناياته، لأنّه مِلاكها، أو لأنّه نتيجة مُعاداته لآدمَ عليه السلام وذرّيّته، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لإظهار كمال شناعة عصيانه.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ تحذير مِن سوء عاقبة ما كان عليه مِن عبادة الشيطان، وهو ابتلاؤه / بما ابتُليَ به معبوده مِن [١٥و] العذاب الفظيع. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ متعلِّقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ للإشعار

---

[1] س: موضع.

بأنّ وَصْف الرحمانيّة لا يدفَع حلول العذابِ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢].

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قرينًا له في اللعن المخلّد. وذِكرُ "الخوف" للمجاملة وإبراز الاعتناء بأمره.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبة القبولِ؟ فقيل: قال مُصرًّا على عِناده: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أمُعرِض ومُنصرِف أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب مِن التعجيب؟ كأنّ الرغبة عنها ممّا لا يصدُر عن العاقل فضلًا عن ترغيب الغير عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديد وتحذير عمّا كان عليه مِن العِظة والتذكير، أي: والله لئن لم تنتهِ عمّا كنت عليه مِن النهي عن عبادتها لأرجُمّنك بالحجارة. وقيل: باللسان.[1] ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ أي: فاحذَرْني واترُكني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمانًا طويلًا، أو مليًّا بالذهاب مطيقًا به.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلَف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومُتارَكة على طريقة مقابلةِ السيّئة بالحسنة، أي: لا أصيبُك بمكروهٍ بعدُ ولا أشافِهك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى﴾ أي: أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفّقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوّح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء، ٨٦/٢٦].

والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيّنِ أنّه يموت على الكفر ممّا لا ريبَ في جوازه، وإنّما المحظور استدعاء المغفرة له / مع بقائه على الكفر، [١٥ظ]

[1] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

فإنّه ممّا لا مساغَ له عقلًا ولا نقلًا. وأمّا الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا يأباه قضيّة العقل، وإنّما الذي يمنعه السمعُ؛ ألا يُرى إلى أنّه عليه السلام قال لعمّه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنهَ عنه»،[1] فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة، ١١٣/٩].

ولا اشتباهَ في أنّ هذا الوعد مِن إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وما ترتَّب عليهما مِن قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِى﴾ الآية، إنّما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبيُّن أمره، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة، ١١٤/٩]، كما مرّ في تفسير سورة التوبة.

واستثناؤه عمّا يؤتَسى به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٤/٦٠] لا يقدَح في جوازه، لكن لا لأنّ ذلك كان قبل ورود النهي أو لمَوعِدة وعَدها إيّاه كما قيل، لِما أنّ النهيَ إنّما ورد في شأن الاستغفار بعد تبيّن الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبيّن فلم يتناوله النهيُ أصلًا، وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظرَه؛ بل لأنّ المراد بما يؤتَسى به ما يجب الائتساء به حتمًا لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة، ٦/٦٠]، فاستثناؤه عن ذلك إنّما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المَرجوّ إيمانه لاسيّما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء، وذلك ممّا لا يتردَّد فيه أحد مِن العقلاء.

وأمّا عدم جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا. وتوجيه الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِى﴾ الآية؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه. وتخصيص تلك العِدَة بالذِّكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج / التأكيد القسَمي، وأمّا جَعْل الاستغفار دائرًا عليها وترتيبُ التبرُّؤ على تبيّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في تفسير سورة التوبة. [١٦و]

---

[1] صحيح البخاري، ٩٥/٢ (١٣٦٠)؛ صحيح مسلم، ٥٤/١ (٣٩)؛ جامع البيان للطبري، ٢٠/١٢ (التوبة، ١١٣/٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٤ (التوبة، ١١٣/٩).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: بليغًا في البِرّ والإلطاف، تعليلٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم يؤثِّر فيكم نصائحي. ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّي﴾ أعبده وحدَه. وقد جُوّز أن يراد به دعاؤه المذكور في سورة الشعراء،[1] ولا يبعُد[2] أن يُراد به استدعاء الولد أيضًا بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧] حسبما يساعده السِّياق والسِّياق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا ضائعَ السعي، وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم. وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰ﴾ مِن إظهار التواضُع ومراعاة حُسن الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقّ مِن أنّ الإجابة والإثابة بطريق التفضّل منه عزّ وجلّ لا بطريق الوجوب وأنّ العِبرة بالخاتمة وذلك مِن الغيوب المختصّة بالعليم الخبير، ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقهم مِن أقربائه الكفَرة، لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإنّ المشهور أنّ الموهوب حينئذ إسماعيلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧] إثرَ دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]. ولعلّ ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عِظَم النِّعم التي أعطاها الله تعالى إيّاه بمقابلة مَن اعتزلهم مِن الأهل والأقرباء، فإنّهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير.

---

[1] وفي هامش م: هو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء، ٨٣/٢٦]. «منه».

[2] س: أن يبعد.

هذا وقد رُوي أنه عليه السلام لمّا قصد الشام أتى أوّلًا حَرّان،[١] وتزوّج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ.[٢] والأوّلُ هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحد منهما أو منهم،[٣] وهو مفعول أوّلُ لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، / قُدِّم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى مَن عداهم؛ بل بالنسبة [١٦ظ] إلى بعضهم، أي: كلّ واحد منهم جعلنا نبيًّا، لا بعضَهم دون بعض.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوّة، وذِكرها بعد ذِكر جَعْلهم نبيًّا للإيذان بأنّها مِن باب الرحمة. وقيل: هي المال والأولاد وما بُسط لهم مِن سَعة الرزق. وقيل: هو الكتاب.[٤] والأظهرُ أنّها عامّة لكلّ خير دِيني ودُنيوي أُوتوه ممّا لم يُؤتَ أحد مِن العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويُثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء، ٨٤/٢٦]. والمراد باللسان ما يوجد به مِن الكلام، ولسان العرب: لغتهم، وإضافتُه إلى الصدق ووصفُه بالعُلوّ للدلالة على أنّهم أحِقّاءُ بما يُثنون عليهم، وأنّ مَحامِدهم لا تخفى على تباعُد الأعصار وتبدّلِ الدول وتحوّل المِلَل والنِحَل.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قُدّم ذِكره على ذِكر إسماعيلَ عليهما السلام لئلّا ينفصِل عن ذِكر[٥] يعقوبَ عليهم السلام. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾[٦] موحِّدًا أخلصَ عبادته

---

١ حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة، مِن جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر. وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٥/٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

٣ وفي هامش م: وهو الأنسب بما بعده مِن ضميرَي الجمع. «منه».

٤ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٦/٥.

٥ س - ذِكر.

٦ ضُبطت في م بكسر "اللام"، وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢. وأثبتُّ قراءة حفص ههنا.

عن الشِّرك والرِّياء، أو أسلَم وجهه لله وأخلَص نفسَه عمّا سواه، وقرئ: "مُخْلَصًا"[1] على أنّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدّم ﴿رَسُولًا﴾ مع كونه أخصَّ وأعلى.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ ﴿ٱلطُّورِ﴾: جبل بين مصرَ ومَدْيَنَ، و﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفة لـ"الجانب"، أي: ناديناه مِن ناحيته اليُمنى مِن اليمين، وهي التي تَلي يمينَ موسى عليه السلام، أو مِن جانبه الميمون مِن" اليُمن"، ومعنى ندائه منه أنه تمثَّل له الكلام مِن تلك الجهة.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريبَ تشريف، مُثّل حاله عليه السلام بحال مَن قرّبه المَلِك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. و﴿نَجِيًّا﴾، أي: مناجيًا حال مِن أحد الضميرين في ﴿نَٰدَيْنَٰهُ﴾ أو ﴿قَرَّبْنَٰهُ﴾. وقيل: مرتفعًا، لِما رُوي أنّه رُفع فوق السماوات حتّى سمع / صَريف القلم.[2] [١٧و]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ أي: مِن أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضَدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠] لا نفسَه، لأنّه كان أكبرَ منه عليهما السلام، وهو على الأوّل مفعول لـ﴿وَهَبْنَا﴾ وعلى الثاني بدل، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذِكره عن ذِكر أبيه وأخيه لإبراز كمال

---

١ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٠.

الاعتناء بأمره بإيراده مستقلًّا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليل لموجَب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به، وناهيك أنّه وعَد الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[1] [الكهف، ٦٩/١٨] فوفّى.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دلالة على أنّ الرسول لا يجب أن يكون صاحبَ شريعة، فإنّ أولاد إبراهيمَ عليهم السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأهمّ وهو أن يُقبِل الرجل بالتكميل على نفسه ومَن هو أقربُ الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم، ٦/٦٦]، وقصدًا[2] إلى تكميل الكلّ بتكميلهم لأنّهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أمّتُه فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباء الأمَم.[3]

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاتّصافه بالنعوت الجليلة التي مِن جملتها ما ذُكر مِن خصاله الحميدة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سِبط شيث وجدُّ أبي نوح فإنّه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام، واشتقاقُه مِن الدَّرس[4] يردّه مَنْع صرفه. نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريبًا مِن ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته.[5] رُوي أنّه تعالى / أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنّه أوّلُ مَن خطّ بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب.[6] [١٧ظ]

---

١ كذا في م ط س، والآية المذكورة قالها موسى عليه السلام للخَضِر، وأمّا وعد إسماعيل بالصبر على الذّبح فهو في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات، ١٠٢/٣٧].

٢ السياق: اشتغالًا... وقصدًا...

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٩/٣.

٤ ذكَر ذلك البغوي في معالم التنزيل، ٢٣٧/٥.

٥ الردّ مع التوجيه المذكور ذكرهما الزمخشري في الكشّاف، ٢٠/٣.

٦ الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٧/٥-٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في جميع أحوالِه ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مخصِّص للأول، إذ ليس كلُّ صدِّيق نبيًّا.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرَف النبوّة والزُّلفى عند الله عزّ وجلّ. وقيل: علوُّ الرتبة بالذِّكر الجميل في الدنيا،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح، ٤/٩٤]. وقيل: الجنّة.[2] وقيل: السماء السادسة،[3] أو الرابعة.[4]

رُوي عن كعب وغيره في سبب رَفْع إدريسَ عليه السلام أنّه سُئل ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: «يا ربّ إنّي قد مشَيتُ فيها يومًا وقد أصابني منها ما أصابني، فكيف مَن يحمِلها مسيرةَ خمسمائة عامٍ في يوم واحد؟ اللّهمّ خفِّف عنه مِن ثِقَلها وحرِّها،» فلمّا أصبح المَلَك وجد مِن خفّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال: «يا ربّ ما الذي قضيتَ فيه؟» قال: «إنّ عبدي إدريسَ سألني أن أخفِّف عنك حَمْلها وحرَّها فأجبتُه»، قال: «ربّ اجعل بيني وبينه خُلّةً،» فأذِن الله تعالى له فرفَعه إلى السماء.[5]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه مِن معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفتُه، أي: أنعم عليهم بفنون النِّعَم الدينيّة والدنيويّة حسبما أشيرَ إليه مجمَلًا، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول.

وقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجارّ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿مِنْ﴾ فيه للتبعيض لأنّ المنعَم عليهم أعمُّ مِن الأنبياء وأخصُّ مِن الذرّيّة.

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٣٨.

٢ مَرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠.

٣ مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ١٥/٥٦٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠.

٤ مَرويّ عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخُدري وأبي هريرة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٥/٥٦٤-٥٦٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٣٨.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذرّيّة مَن حملنا معه خصوصًا، وهم مَن[1] عدا إدريسَ عليه السلام، فإنّ إبراهيم كان مِن ذرّيّة سام بن نوح. / ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [١٨و] وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: ومِن ذرّيّة إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دليل على أنّ أولاد البنات مِن الذرّيّة. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا﴾ أي: ومِن جملة مَن هديناهم إلى الحقّ واجتبيناهم للنبوّة والكرامة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾. ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافًا مَسوقًا لبيان خشيتهم مِن الله تعالى وإخباتهم له، مع ما لهم مِن عُلوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرَف النسَب وكمالِ النفس والزُّلفى مِن الله عزّ سلطانه. و﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حالان مِن ضمير ﴿خَرُّوا۟﴾، أي: ساجدين باكين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اتلُوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا».[2] و"البُكِيُّ" جمع "باكٍ" كـ"السُّجود" جمع "ساجد"، وأصله "بُكُويٌ" فاجتمعت "الواو" و"الياء" وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت "الياء" في "الياء"، وحُرِّكت "الكاف" بالكسر المجانس لـ"الباء". وقرئ: "يُتْلَى"[3] بـ"الياء" التحتانيّة لأنّ التأنيث غير حقيقي، وقرئ: "بِكِيًّا"[4] بكسر "الباء" للإتباع.

قالوا: ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآيها، فهنا يقول: اللّهمّ اجعلني مِن عبادك المنعَم عليهم المهديّين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك. وفي آية الإسراء يقول: اللّهمّ اجعلني مِن الباكين إليك الخاشعين لك. وفي آية تنزيل السجدة يقول: اللّهمّ اجعلني مِن الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك مِن أن أكون مِن المستكبرين عن أمرك.[5]

---

١ ط س: ما.

٢ بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٢ (١٣٣٧)؛ ومسند أبي يعلى، ٤٩/٢ (٦٨٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤١٠/٣ (١٨٩١)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن جُندب وأبي حَيْوَة وابن عامر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٠٦.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٥ القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ يقال لعَقِب الخير: "خَلَف" بفتح اللام، ولعقِب الشرّ: "خَلْف" بالسكون، أي: فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِب سوء، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقُرئ "الصَّلَوَاتِ"،[1] أي: تركوها،[2] أو أخّروها[3] عن وقتها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن شُرب الخمر واستحلال نكاح الأخت مِن الأب / والانهماكِ في [١٨ظ] فنون المعاصي. وعن عليّ رضي الله عنه: «هم مَن بنى الشديد وركِب المنظور ولبِس المشهور».[4]

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ أي: شرًّا، فإنّ كلّ شرّ عند العرب غيّ وكلّ خير رشادٌ، كقوله:

فمَن يلقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ ومَن يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغيّ لائما[5]

وعن الضحّاك: جزاءَ غيّ،[6] كقوله تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان، ٦٨/٢٥] أي: جزاءَ أثامٍ، أو غيًّا عن طريق الجنّة. وقيل: "غَيّ" وادٍ في جهنّمَ يستعيذ منه أوديتها.[7]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ يدلّ على أنّ الآية في حقّ الكفَرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا، أي: فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والضحّاك وابن مِقسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٨؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١٢٠٧.

٢ وفي هامش م: كما هو الظاهر.

٣ وفي هامش م: كما قاله بعضهم.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٠٨/١٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٢/٢.

٥ البيت للمُرقِّش الأصغر في **المفضّليّات** للضَّبّي، ص ٢٤٧؛ **وإصلاح المنطق** لابن السكّيت، ص ١٥١؛ **والصحاح** للجوهري، «غوى»؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣. وهو بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٣/١٥.

٦ عن الزجّاج في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ وهو في **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٣٣٥/٣؛ وعن الضحّاك: غيًّا وخسرانًا. **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥.

٧ مرويّ بمعناه عن عبد الله بن عمرو وابن عبّاس وعطاء وغيرهم في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٢/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥؛ وبلفظه ههنا بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣.

والعمل الصالح ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بموجَب الوعدِ المحتوم. وقُرئ: "يُدْخَلُوْنَ"[1] على البناء للمفعول.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يُنقَصون مِن جزاء أعمالِهم شيئًا، أو لا ينقُصون شيئًا مِن "النقص". وفيه تنبيهٌ على أنّ كفرهم السابق لا يضرّهم ولا ينقُص أجورَهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح، وقُرئ بالرفع[2] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي أو تلك جنّات... إلخ. أو مبتدأ خبرُه ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾... إلخ. وقُرئ: "جَنَّة عَدْنٍ" نصبًا[3] ورفعًا.[4]

و"عَدْن" عَلَم لمعنى العَدْن وهو الإقامة، كما أنّ "فَيْنَةَ" و"سَحَرَ" و"أمسَ" فيمَن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني "الفَينة" وهي الساعة التي أنت فيها و"السَّحَر" و"الأمس"، فجرى لذلك مَجرى العَدْن، أو هو عَلَم لأرض الجنّة خاصّة، ولولا ذلك لَما ساغ إبدال ما أضيفَ إليه / مِن الجنّة بلا وصف عند غير البصريّين [١٩و] ولا وصفه[5] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾، وجَعْلُه بدلًا منه خلاف الظاهر، فإنّ الموصول في حُكم المشتقّ وقد نصّوا على أنّ البدَل بالمشتقّ ضعيف. والتعرّض لعنوان الرحمة للإيذان بأنّ وعدها وإنجازه لكمال سَعة رحمته تعالى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلِّقة بمضمر هو حال مِن المضمر العائد إلى "الجنّات" أو مِن ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: وعَدها إيّاهم ملتبِسةً أو ملتبِسين بالغيب،

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والمُناذري عن نافع والقُورُسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والأعمش والزُّهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٠٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإسحاق والأزرق عن نافع وقتادة. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٠٧.

٥ وفي هامش م: أي: وَصْفُ ما أضيفَ إليه. «منه».

أي: غائبة عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَونها، وإنّما آمنوا بها بمجرّد الإخبار، أو بمضمر هو سبب للوعد، أي: وعدها إيّاهم بسبب إيمانهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعده كائنًا ما كان فيدخل فيه الجنّات الموعودة دخولًا أوّليًا، ولمّا كانت هي مَثابة يُرجَع إليها قيل: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: يأتيه مَن وُعِد له لا محالةَ بغير خُلْف. وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل. وقيل: مأتيًا، أي: مفعولًا مُنجَزًا مِن "أتى إليه إحسانًا"، أي: فعَلَه.[1]

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: فضولَ كلام لا طائلَ تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أنّ اللغوَ ممّا ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدار ما أمكن. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطِع، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو متّصلٌ بطريق التعليق بالمُحال، أي: لا يسمعون لغوًا ما إلّا سلامًا فحيث استحال كون السلام لغوًا استحال سماعُهم له بالكلّيّة، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفهم بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[2]

أو على أنّ معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياءُ عنه، فهو مِن باب اللغو ظاهرًا، وإنّما فائدته الإكرام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ / فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم، ١٩/٦٢] وارد على [١٩ظ] عادة المتنعِّمين في هذه الدار. وقيل: المراد دوام رزقِهم ودُرورُه، وإلّا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيّ.[3]

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر جيء به لتعظيم شأن الجنّة وتعيين أهلها، فإنّ ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها وعلوّ رتبتها ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

٢ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٦٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٣٢٦/٢؛ والإيضاح للقزويني، ص ٥٢٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٣/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

أي: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نُبقيها عليهم بتقواهم ونُمتِّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مورثه ونمتِّعه به.

والوِراثة أقوى ما يُستعمَل في التملّك والاستحقاق مِن الألفاظ مِن حيث إنّها لا يعقَّب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال. وقيل: يُورَث المتَّقون مِن الجنّة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة في كرامتهم.[1] وقرئ: "نُوَرِّثُ"[2] بالتشديد.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبرائيلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما السلام لمّا سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يُوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يومًا أو خمسةَ عشرَ فشقّ ذلك عليه مشقّة شديدة، وقال المشركون: وَدَّعَه ربُّه وقلاه، ثمّ نزَل ببيان ذلك، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وسورة الضحى.[3] والتنزّل النزول على مَهل لأنّه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلَق التنزيل على الإنزال، والمعنى وما نتنزّل وقتًا غِبَّ وقت إلّا بأمر الله تعالى على ما يقتضيه حكمتُه. وقرئ: "وَمَا يَتَنزَّلُ"[4] بالياء والضمير للوحي.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه مِن الأماكن والأزمنة، ولا ننتقل مِن مكان إلى مكان ولا ننزل في / زمان دون زمان إلّا بأمره ومشيئته. [٢٠و]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: تاركًا لك يعني أنّ عدم النزول لم يكن إلّا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه، ولم يكن لتَرْكه تعالى لك وتوديعه إيّاك كما زعمَتِ الكفرة.

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والحسن وقتادة وابن مِقسَم ومحبوب عن أبي عمرو. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

٣ الكلام بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٢-٢٣. ومضى بتخريجه في تفسير الآية الثالثة والعشرين مِن سورة الكهف، والآية الثالثة والثمانين منها.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٢.

وفى إعادة اسم الربّ المُعرِب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والإشعار بعلّة الحُكم ما لا يخفى.

وقيل: أوّل الآية حكاية قول المتّقين حين يدخُلون الجنّة مخاطِبًا بعضُهم بعضًا بطريق التبجّح والابتهاج، والمعنى وما نتنزّل الجنّةَ إلّا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلّها سالِفها ومُتَرقّبِها وحاضرِها، فما وجدناه وما نجده مِن لطفه وفضلِه، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير لقولهم مِن جهة الله تعالى، أي: وما كان ناسيًا لأعمال العاملين وما وعدهم مِن الثواب عليها.[1]

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإنّ مَن بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحة سبحانِه الغفلةُ والنسيانُ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوف أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.[2]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدها مِن موجَب الأمرين على ما قبلها مِن كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: مِن كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر مِن الربوبيّة الكاملة فاعبده... إلخ، فإنّ إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته ممّا لا ريبَ فيه، أو حين عرفتَ أنّه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنًا مَن كان فأقبِلْ على عبادته، واصطبرْ على مشاقّها، ولا تحزن بإبطال الوحي وهُزْؤ الكفرة، فإنّه يُراقبك ويُراعيك ويلطُف بك في الدنيا والآخرة.[3]

وتعدية الاصطبار بـ"اللام" لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: / ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] لتضمّنه معنى الثبات للعبادة فيما تُورِد عليه [٢٠ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٣/٣.

٢ في الآية السابقة.

٣ القول بإيجاز في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٤/٢.

مِن الشدائد والمشاقّ، كقولك للمبارز: "اصطبِر لقِرنك"، أي: اثبُت له فيما يُورد عليك مِن شَدّاته.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ السمِيُّ هو[1] الشريك في الاسم، والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاصّ قد عُبِّر[2] عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السماوات والأرض وما بينهما. والمراد بإنكار العِلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكَده، فالجملة تقرير لِما أفاده "الفاء" مِن عِلّيّة ربوبيّته العامّة لوجوب عبادته؛ بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عزّ وجلّ بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلّيّة حقًّا أو باطلًا.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنّ المشركين مع غلوّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلًا. وقيل: هو الشريك في اسم الإله، والمرادُ بالتسمية التسمية على الحقّ، فالمعنى هل تعلم شيئًا يسمّى بالاستحقاق إلهًا؟ وأمّا التسمية على الباطل فهي كلا تسمية،[3] فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين مِن الإشعار باستحقاق العبادة، فتدبّر.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به إمّا الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكلّ لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقلْه الجميع، كما يقال: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، وإمّا البعضُ المعهود منهم وهم الكفَرة أو أُبيُّ بن خَلَف، فإنّه أخذ عظامًا باليةً ففتّها فقال: يزعُم محمّد أنّا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال،[4] أي: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي: أُبعث مِن الأرض، أو مِن حال الموت.

وتقديم الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لِما أنّ المنكَر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دلّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به، فإنّ ما بعد "اللام" لا يعمَل

---

١ س - هو.

٢ هكذا ضبطها المصنّف.

٣ القولان بمعناهما في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٤.

فيما قبلها، وهي ههنا مخلَصة للتوكيد مجرّدة عن معنى الحال، كما خلَصت "الهمزة" و"اللام" للتعويض في "يا الله" فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وقرئ: "إِذَا مَا مِتُّ"[1] بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مِن الذِّكر الذي يراد به التفكّر. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأنّ الإنسانيّة مِن دواعي التفكّر فيما جرى عليه مِن شئون التكوين المُنْجِية بالقلع على القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان. والهمزة للإنكار التوبيخي، و"الواو" لعطف الجملة المنفيّة على مقدَّر يدلُّ عليه ﴿يَقُولُ﴾،[2] أي: أيقول ذلك ولا يذكُر.

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: والحال أنّه لم يكن حينئذ شيئًا أصلًا، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخَلْق بالكلّيّة / مع كونه أبعدَ مِن الوقوع فلَأن نَبعثَه بجمع [٢١و] الموادّ المتفرّقة وإيجادِ مِثل ما كان فيها مِن الأعراض أَولى وأظهرُ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه مِن النكير؟ وقرئ: "يَذَّكَّرُ"[3] و"يَتَذَكَّرُ"[4] على الأصل.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه عزّت أسماؤه مضافًا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالإشعار بعلّيّته وتفخيم شأنه عليه السلام ورَفْع منزلته. ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعَنّ القائلين بالسَّوق إلى المَحشَر بعد ما أخرجناهم مِن الأرض أحياء، ففيه إثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكَده، كأنّه أَمْر واضح غنيّ عن التصريح به، وإنّما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك مِن الأهوال. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه.

---

١ قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/١.

٢ في الآية السابقة.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

رُوي أنّ الكفرة يُحشرون مع قرنائهم مِن الشياطين التي كانت تُغويهم، كلٌّ منهم معَ شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مختصًّا بهم، لكن ساغ نسبته إلى الجنس[1] باعتبار أنّهم لمّا حُشروا وفيهم الكفَرة مقرونين بالشياطين فقد حُشروا معهم جميعًا كما ساغ نسبة القول المحكي إليه مع كون القائل بعضَ أفراده.[2]

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ليرى السعداء ما نجّاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسرورًا، وينالَ الأشقياء ما ادخّروا لمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظًا مِن رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم. و"الجِثيّ" جمع "جاثٍ" مِن "جثا" إذا قعَد على ركبته، وأصلُه "جُثُوْوٌ" بواوين فاستُثقل اجتماعهما بعد ضمّتين فكُسرت "الثاء" للتخفيف فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعَت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواو ياءً، وأُدغمت فيها "الياء" الأولى وكُسرت "الجيم" إتباعًا لها[3] لِما بعدها. وقرئ / بضمّها.[4] [٢١ظ]

ونصبُه على الحاليّة مِن الضمير البارز، أي: لنُحضرنّهم حول جهنّم جاثين على رُكَبهم لِما يدهَمُهم مِن هول المطلَع، أو لأنّه مِن توابع التواقُف للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب، فإنّ أهل الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية، ٢٨/٤٥] على ما هو المعتاد في مواقف التقاوُل، وإن كان المراد بالإنسان الكفَرة فلعلّهم يُساقون مِن الموقف إلى شاطئ جهنّم جُثاة إهانة بهم أو لعَجْزهم عن القيام لِما اعتراهم مِن الشدّة.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: مِن كلّ أمّة شاعت دينًا مِن الأديان ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: مَن كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها. وفي ذِكر "الأشدّ"

---

١ وفي هامش م: هو على تقدير كون المراد بـ"الإنسان" الجنس.

٢ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/٣؛ وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٥/٥.

٣ س - لها.

٤ قرأ بها نافع ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

تنبيه على أنّه تعالى يعفو عن بعض مِن أهل العصيان. وعلى تقدير تفسير ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾[1] بالكفَرة فالمعنى: إنّا نميّز مِن كلّ طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلًّا منهم طبقتها اللائقة به.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيّ على الضمّ عند سيبويهِ،[2] لأنّ حقّه أن يُبنى كسائر الموصولات لكنّه أعرِبَ حَمْلًا على "كلّ" و"بعض" للزوم الإضافة، وإذا حُذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقّه، ومنصوبُ[3] المحلّ بـ﴿نَنزِعَنَّ﴾، ولذلك قرئ منصوبًا،[4] ومرفوعٌ[5] عند غيره[6] بالابتداء على أنّه استفهامي وخبره ﴿أَشَدُّ﴾، والجملةُ مَحكيّة، والتقدير: لننزعَنّ مِن كلّ شيعة الذين يقال لهم: أيُّهم أشدّ، أو مُعلّقٌ عنها ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعِلم، أو مستأنَفةٌ والفعل واقع على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾، / على زيادة ﴿مِن﴾ أو على معنى لننزعنّ بعض كلّ شيعة، كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم، ١٩/٥٣]. [٢٢و]

و﴿عَلَى﴾ للبيان فيتعلّق بمحذوف، كأنّ سائلًا قال: على مَن عتَوا؟ فقيل: على الرحمن، أو متعلِّقٌ بـ"أفعل".[7] وكذا "الباء" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: هم أَولى بصليِها أو صليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون. ويجوز أن يراد بهم وبأشدِّهم عِتيًّا رؤساءُ الشِّيَع، فإنّ عذابهم مُضاعَف لضلالهم وإضلالهم.[8] و"الصِّليُّ" كـ"العِتيّ" صيغةً وإعلالًا، وقرئ بضمّ الصاد.[9]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام. وقيل: هو خطاب للناس مِن غير التفات إلى المذكور.[10] ويؤيّد الأوّل أنّه قرئ:

---

١ مريم، ١٩/٦٧.
٢ انظر: كتاب سيبويه، ٢/٤٠٠.
٣ س: وهو منصوب.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢١٠.
٥ السياق: مبنيّ على الضمّ... أو مرفوع...
٦ أي: غير سيبويه.
٧ هذه الوجوه في إعرابها مذكورة بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٥.
٨ الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٦.
٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٧.
١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧.

"وَإِنْ مِنْهُمْ"،[1] أي: ما منكم أيّها الإنسان. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واصلها وحاضر دونها، يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنّه عليه السلام سُئل عنه فقال: «إذا دخَل أهل الجنّة الجنّة قال بعضُهم لبعض: "أليس قد وعَدنا ربّنا أن نرِد النار؟" فيُقال لهم: "قد وردتُموها وهي خامدة"».[2] وأمّا قولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١]، فالمراد به[3] الإبعاد عن عذابها. وقيل: ورودها: الجواز على الصراط الممدود عليها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودُهم إيّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أمرًا محتومًا أوجبه الله عزّ وجلّ على ذاته وقضى أنّه لا بدّ مِن وقوعه البتّةَ. وقيل: أقسم عليه.[4]

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

[٢٢ظ] ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الكفر والمعاصيَ / ممّا كانوا عليه مِن حال الجُثُوّ على الرُّكب على الوجه الذي سلَف، فيُساقون إلى الجنّة. وقرئ: "نُنْجِيْ"[5] بالتخفيف، و"يُنَجَّى"[6] و"يُنْجَى"[7] على البناء للمفعول، وقرئ: "ثَمَّةَ نُنَجِّيْ"[8] بفتح "الثاء"، أي: هناك نُنجّيهم.

﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهارًا بهم كما كانوا. قيل: فيه دليل على أنّ المراد بالورود الجثُوُّ حواليها وأنّ المؤمنين يفارقون الفجَرة بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرة فيها على هيئاتهم.[9]

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٥/٢. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ٣٣٢/٢.

٣ س - به.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٢.

٥ قرأ بها الكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية إلى آخرها، حكاية لِما قالوا عند سماع الآياتِ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بحُسن حال المؤمنين وسوءِ حال الكفرة. وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: مرتّلاتِ الألفاظ مبيِّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو ببيّناتِ الإعجاز، حالٌ مؤكِّدة مِن ﴿ءَايَٰتُنَا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قالوا، ووَضْع الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له، أو قال الذين مرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النَّضْر بن الحارث وأتباعه الفجَرة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ للتبليغ، كما في مِثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤٧]. وقيل: لام الأجْل،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ٤٦/١١] أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ قَولهم ليس في حقّ المؤمنين فقط كما ينطِق به / قوله تعالى: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنّهم قالوا: أيّنا ﴿خَيْرٌ﴾ [٢٣و] نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكانًا. وقرئ بضمّ "الميم"،[2] أي: موضِعَ إقامة ومنزل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلِسًا ومجتمَعًا.

يُروى أنّهم كانوا يرجِّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيّبون ويتزيّنون بالزِّيَن الفاخرة ثمّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أنّ خيريّتهم حالًا وأحسنيّتهم مآلًا ممّا لا يقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلفاهم عنده؛ إذ هو العِيار على الفضل والنقصان والرفعة والضَّعة، وأنّ مِن ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجل، وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلّا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا، وذلك مبلغُهم مِن العلم.

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٦.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨-٣١٩.

فرُدَّ عليهم ذلك مِن جهته تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كثيرًا مِن القرون التي كانوا أفضل منهم فيما يفتخرون به مِن الحظوظ الدنيويّة كعاد وثمودَ وأضرابهم مِن الأمَم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لِكرامتهم علينا لَما فعلنا بهم ما فعلنا. وفيه مِن التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنّه قيل: فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك. فـ﴿كَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن قَرْنٍ﴾ بيان لإبهامها، وأهلُ كلّ عصر قَرنٌ لمَن بعدهم لأنّهم يتقدّمونهم، مأخوذ مِن "قَرْن الدابّة" وهو مقدَّمها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ في حيِّز النصب على أنّه صفة لـ﴿كَمْ﴾، و﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز النسبة وهو متاع البيت. وقيل: هو ما جدّ منه، والجُرْثيُّ[1] ما لُبِس منه ورَثّ.[2] والرِّئْيُ: المنظرُ، / "فِعْلٌ" مِن الرؤية لِما يُرَى، كـ"الطِّحْن" لِما يُطحَن، [٢٣ظ] وقرئ: "رِيًّا"[3] على قلب الهمزة ياءً وإدغامها، أو على أنّه مِن الرِّيّ وهو النعمةُ والتَّرفُّه، وقرئ: "رِيْئًا"[4] على القلب، و"رِيًا"[5] بحذف "الهمزة"، و"زِيًّا"[6] بـ"الزاء" المعجَمة مِن الزِّيّ وهو الجمع، فإنّه عبارة عن المحاسن المجموعة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لمّا بيّن عاقبة أمْر الأمَم المهلَكة مع ما كان لهم مِن التمتّع بفنون الحظوظ العاجلة أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم مِن الحظوظ ببيان مآل أمْر الفريقين، إمّا على وجه كلّي متناول لهم ولغيرهم مِن المنهمِكين في اللذة الفانية

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ صوابه "الخُرثيّ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرث».

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩.

٣ قرأ بها ابن ذكوان وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ويزيد البربري والحُلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢١٢.

المبتهِجين بها على أنّ ﴿مَن﴾ على عمومها، وإمّا على وجه خاصّ بهم على أنّها عبارة عنهم ووَصْفهم بالتمكّن لذمّهم والإشعار بعلّة الحُكم، أي: مَن كان مستقرًّا في الضلالة مغمورًا بالجهل والغَفلة عن عواقب الأمور فليمدُد له الرحمن، أي: يمُدّ له ويُمهِله بطول العُمر وإعطاءِ المال والتمكين مِن التصرّفات.

وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُفعَل بموجَب الحِكمة لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، أو للاستدراج كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران، ١٧٨/٣]. وقيل: المراد به الدعاء بالمدّ والتنفيس.[١] واعتبارُ الاستقرار في الضلالة لِما أنّ المدّ لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبّ ضالّ يهديه الله عزّ وجلّ. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ المدّ مِن أحكام الرحمة الدنيويّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدّ الممتدّ لا لقول المفتخِرين كما قيل،[٢] / إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات، وهو ظاهر، ولا استمرارٌ بحسب [٢٤و] التكرار لوقوعه في حيّز جواب ﴿إِذَا﴾.[٣] وجَمْعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضميرين الأوّلين باعتبار لفظها.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل، فإنّه إمّا العذاب الدنيوي بغلَبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إيّاهم قتلًا وأسرًا، وإمّا يوم القيامة وما نالهم فيه مِن الخزي والنَّكال على طريقة مَنْع الخلوّ دون مَنْع الجمعِ، فإنّ العذاب الأخروي لا ينفكّ عنهم بحال.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة محكيّة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾، أي: حتّى إذا عاينوا ما يوعَدون مِن العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط، فسيعلمون حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفريقين بأن يشاهِدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرونه، فيعلمون أنّهم شرٌّ مكانًا لا خيرٌ مقامًا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي:

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.

٣ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية. «منه».

فئة وأنصارًا لا أحسنُ نديًا كما كانوا يدّعونه، وليس المراد أنّ له ثمّة جندًا ضعفاء، كلّا، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف، ٤٣/١٨]، وإنّما ذُكر ذلك ردًّا لِما كانوا يزعمون أنّ لهم أعوانًا مِن الأعيان وأنصارًا مِن الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيان حال الضالّين. وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لأنّه في معنى الخبر حسبما عرفتَه، كأنّه قيل: مَن كان في الضلالة يمُدّه الله، ويزيد المهتدين هداية،[1] كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وقيل: عطفٌ على الشرطيّة المحكيّة بعد القول، كأنّه لمّا بُيّن أنّ إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله، عُقّب / ذلك ببيان أنّ [٢٤ظ] قصور حظّ المؤمن منها ليس لنقصه؛ بل لأنّه تعالى أراد به ما هو خير مِن ذلك.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ على تقديرَي الاستئناف والعطف كلامٌ مستأنَف وارد مِن جهته تعالى لبيان فَضْل أعمال المهتدين غيرُ داخل في حيِّز الكلام الملقّن[3] لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومِن جملتها ما قيل مِن الصلوات الخمس، وما قيل مِن قول: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر" خير عند الله تعالى.[4] والتعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿ثَوَابًا﴾ أي: عائدةً ممّا يَتمتّع به الكفَرة مِن النِّعم المُخدَجة الفانية التي يفتخرون بها، لاسيّما ومآلُها النعيم المقيم، ومآلُ هذه الحسرةُ السرمديّة والعذابُ الأليم، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجعًا وعاقبةً. وتكرير "الخير" لمزيد الاعتناء ببيان الخيريّة وتأكيدٌ لها، وفي التفضيل مع أنّ ما للكفرة بمَعزِل مِن أن يكون له خيريّة في العاقبة تهكّمٌ بهم.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.
٣ س - الملقّن.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي مِن جملتها آيات البعث. نزلت في العاص بن وائل كان لخبّاب بن الأرتّ عليه مال فاقتضاه، فقال: «لا، حتّى تكفر بمحمّد»، قال: «لا والله لا أكفر به حيًّا ولا ميتًا ولا حين بُعِثتُ،» قال: «فإذا بُعثتَ جئني فيكونُ لي ثمّة مال وولد فأعطيَك». وفي رواية قال: «لا أكفر به حتّى يُميتَك ثم تُبعثَ»، فقال: «إنّي لميّت ثمّ مبعوث؟» قال: «نعم»، قال: «دعني حتّى أموت وأُبعثَ فسأُوتى مالًا وولدًا فأقضيَك»، فنزلت.[1] فـ"الهمزة" للتعجيب مِن حاله والإيذان بأنّها مِن الغرابة والشناعة بحيث يجب أن تُرى ويُقضى منها العجب.

/ ومَن فرّق[2] بين "ألم ترَ" و"أرأيتَ" بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب بأنّ الأوّل يعلَّق بنفس المتعجَّب منه، فيقال: "ألم ترَ إلى الذي صنع كذا" بمعنى انظُرْ إليه فتعجَّبْ مِن حاله، والثاني يعلَّق بمثل المتعجَّب منه، فيقال: "أرأيتَ مِثلَ الذي صنع كذا" بمعنى أنّه مِن الغرابة بحيث لا يُرى له مِثلٌ،[3] فقد حفِظ[4] شيئًا وغابت عنه أشياءُ، وكأنّه ذهب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون، ١/١٠٧]. [٢٥و]

و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أنظرْتَ فرأيتَ الذي كفَر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ مَن يشاهدها.

﴿وَقَالَ﴾ مستهزئًا بها مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: انظُر إليه فتعجّبْ مِن حالته البديعة وجُرأته الشنيعة. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، وقد قيل: إنّ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى "أخبِر" و"الفاء" على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصّة هذا الكافر عقيبَ حديث أولئك الذين قالوا:

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣/٦٠ (٢٠٩١)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢١٥٣ (٢٧٩٥)؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٦١٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٥٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٣٠-٣١.

٢ وفي هامش م: هو الفاضل التفتازاني، ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٩]. «منه».

٣ انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف ١٨٨و.

٤ السياق: ومَن فرّق... فقد حفظ...

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ الآية،[١] وأنت خبير بأنّ المشهور استعمال "أرأيت" في معنى "أخبرني" بطريق الاستفهام جاريًا على أصله أو مُخرَجًا إلى ما يناسبه مِن المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره.

وقرئ: "وُلْدًا"[٢] على أنّه جَمْع "وَلَد" كـ"أُسْد" جَمْع "أَسَد" أو على أنّه لغة فيه كـ"العُرْب" و"العَرَب".

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردّ لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثرَ ما أشيرَ إليه بالتعجيب منها، أي: قد بلغ مِن عظَمة الشأن إلى أن ارتقى إلى عِلم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير حتّى ادّعى أن يؤتى في الآخرة مالًا وولدًا وأقسم عليه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك فإنّه لا يُتوصَّل إلى العِلم به إلّا بأحد هذين الطريقين. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بعلّيّة الرحمة / لإيتاء ما يدّعيه. [٢٥ظ]
وقيل: العهد: كلمة الشهادة.[٣] وقيل: العمل الصالح،[٤] فإنّ وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد، وهذا مُجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أنّ كلامه مع خبّاب كان كذلك.

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن التفوّه بتلك العظيمة وتنبيهٌ على خطائه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهر أنّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا مـا انـتـسـبْـنـا لـم تـلِـدنـي لـئـيـمـةٌ[٥]

أي: يتبيّن أنّي لم تلِدني لئيمة.

---

١ مريم، ٧٣/١٩.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.
٤ مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٦٢١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.
٥ صدر بيت لزائد بن صعصعة الفقعسي، وتمامه:
ولـم تجدي مِـن أن تُقِرّي بها بُدّا
وهو له في شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٤/١؛ وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ٦١/١ (البقرة، ٩١/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٥٧/٣ (البقرة، ٩١/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

. أو سننتقم منه انتقام مَن كتب جريمة الجاني وحفِظها عليه، فإنّ نفس الكَتَبة لا تكاد تتأخّر عن القول، لقوله عزّ وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق، ١٨/٥٠]، فمبنى الأوّل تنزيل إظهار الشيء الخفيّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم بجامع أنّ كلًّا منهما إخراج مِن الكُمون إلى البُروز فيكون استعارة تبعيّة مبنيّة على تشبيه إظهار الكتابة على رءوس الأشهاد بإحداثها، ومدارُ الثاني تسمية الشيء باسم سببه فإنّ كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعًا.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ مكان ما يدّعيه لنفسه مِن الإمداد بالمال والولد، أي: نُطوّل له مِن العذاب ما يستحقّه أو نزيد عذابه ونُضاعف له لكُفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العِظام، ولذلك أُكّد بالمصدر دلالة على فَرْط الغضب.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: مسمَّى ما يقول ومِصداقه وهو ما أوتيه في الدنيا مِن المال والولد، وفيه إيذان بأنّه ليس لِما يقول مِصداق موجود سوى ما ذُكر، أي: ننزع عنه ما آتيناه. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلًا أن يؤتى ثمّة زائدًا. وقيل: نزوي عنه ما زعَم أنّه يناله في الآخرة ونعطيه مَن يستحقّه.[1] ويأباه معنى الإرث.

وقيل: المراد بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ نفس القول المذكور لا مسمّاه، والمعنى إنّما يقول هذا القول ما دام حيًّا فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه.[2] وأنت خبير بأنّ ذلك مبنيّ على / أنّ صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد [٢٦و] وأنّه مستمرّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريبَ في أنّ ذلك مستحيل ممّن كفر بالبعث، وإنّما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دَينه بالمُحال.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ حكاية لجناية عامّة للكلّ مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها،

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣١.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٨.

أي: اتّخذوا الأصنام آلهةً متجاوزين الله تعالى. ﴿لِيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليُعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وُصلةً إليه عزّ وجلّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم مِن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن يُنطِقها الله تعالى وتقولَ: ما عبدتمونا، أو سيُنكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٣].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ على الأوّل تكون الآلهة التي كانوا يرجُون أن تكون لهم عِزًّا ضدًّا للعزّ، أي: ذلًّا وهَوانًا، أو تكون عونًا عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقود النار وحصَب جهنّم، أو حيث كانت عبادتهم لها سببًا لعذابهم. وإطلاق الضدّ على العَون لِما أنّ عَون الرجل يُضادّ عدوّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفَرة ضدًّا وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبُّونها كحبّ الله ويعبدونها. وتوحيدُ الضدّ لوَحدة المعنى الذي عليه يدور مُضادّتهم، فإنّهم بذلك كشيء واحد، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «وهم يد على مَن سواهم»،[1] وقرئ: "كَلًّا"[2] بفتح "الكاف" والتنوينِ على قلب "الألف" نونًا / في الوقف قلْبَ ألفِ الإطلاق في قوله: [٢٦ظ]

أقِلّي اللومَ عاذِلَ والعِتابَنْ وقُولي إن أصبتُ لقد أصابَنْ[3]

أو على معنى كَلَّ هذا الرأي كلًّا، وقرئ: "كُلًّا"[4] على إضمار فعل يفسِّره ما بعده، أي: سيجحدون كلًّا سيكفرون... إلخ.

---

١ مسند أحمد، ٢/٢٦٧ (٩٥٩)؛ سنن أبي داود، ٤/٣٧٩ (٢٧٥١)؛ شعب الإيمان ٣/٤٠ (١٣٧٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.

٣ البيت لجرير في ديوانه ٨١٣؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٤/٢٠٥؛ وسِرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٢/١٣٦؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠٠ (الأحزاب، ٣٣/١٠).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢١٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا نطَقت به الآيات الكريمة السالفة وحكَته عن هؤلاء الكفَرة الغُواة والمَرَدة العُتاة مِن فنون القبائح مِن الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيّ، والانهماكِ في الضلال، والإفراط في العِناد، والتصميمِ على الكفر مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطف يَثنيهم، والإجماعِ على مدافَعة الحقّ بعد اتّضاحه وانتفاءِ الشكّ عنه بالكلّيّة؛ وتنبيهٌ على أنّ جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم؛ لا لأنّ له مسوِّغًا ما في الجملة.

ومعنى إرسال الشياطين عليهم إمّا تسليطهم عليهم وتمكينهم مِن إضلالهم وإمّا تقييضهم لهم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام مِن إرسالهم عليهم،[1] كما يُوهِمه تعليق الرؤية به، بل ممّا ذُكر مِن أحوال الكفَرة مِن حيث كونها مِن آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فإنّه إمّا حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئناف وقَع جوابًا عمّا نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ؟ فقيل: تؤزُّهم، أي: تُغريهم وتُهيّجهم على المعاصي تهييجًا شديدًا بأنواع الوساوس والتسويلات، فإنّ الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات معناها شِدّةُ الإزعاج.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بأن يَهلكوا حسبما يقتضيه جناياتهم ويَبِيدوا عن آخرهم وتطهُر الأرض مِن فساداتهم. و"الفاء" للإشعار / بكون ما قبلها مَظِنّة لوقوع المنهيّ عنه مُحوِجةً إلى النهي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه، ١١٧/٢٠]. [٢٧و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليل لموجَب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، أي: لا تستعجِل بهلاكهم، فإنّه لم يبقَ لهم إلّا أيّام وأنفاسٌ نعُدّها عدًّا.

---

[1] كما ذهب إليه الزمخشري في **الكشّاف**، ٣٢/٣.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ منصوب على الظرفيّة بفعل مؤخَّر قد حُذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحِه لكمال فظاعة ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والدواهي العامّة، كأنّه قيل: يوم نحشر المتّقين، أي: نجمعهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى ربّهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَفِدُ الوفود على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عِطاشًا فإنّ مَن يرد الماء لا يُورِده إلّا العطشُ، أو كالدوابّ التي ترِد الماء، نفعل بالفريقين مِن الأفعال ما لا يفي ببيانه نِطاق المقال.

وقيل: منصوب على المفعوليّة بمضمر مقدَّم خُوطب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر... إلخ. وقيل: على الظرفيّة لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.[1] والذي يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأوّلَين، ويكون هذا استئنافًا مبيّنًا لبعض ما فيه مِن الأمور الدالّة على هَوله، وضميره عائد إلى العباد المدلول عليهم بذِكر الفريقين لانحصارهم فيهما.

[٣٧ظ] وقيل: إلى المتّقين / خاصّة. وقيل: إلى المجرمين مِن الكفرة وأهل الإسلام.[2] والشفاعة على الأوّلَين مصدر مِن المبنيّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أن يكون مصدرًا مِن المبنيّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ومحلّ المستثنى إمّا الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلّا مَن استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو مَن أُمر بذلك، مِن قولهم: "عَهِد الأمير إلى فلان بكذا" إذا أمرَه به، فيكون ترغيبًا للناس في تحصّل الإيمان والتقوى المؤدّي إلى نَيل هذه الرتبة.

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣.

[2] القولان في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٣٣.

وعلى **الثاني** استثناء مِن ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على حذف المضافِ، والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء، أي: لا يملك المتّقون الشفاعة إلّا شفاعةَ مَن اتّخذ العَهْد بالإسلام فيكون ترغيبًا في الإسلام.

وعلى **الثالث** استثناء مِن ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أيضًا، والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الأصل، والمعنى لا يملك المجرمون أن يُشفَع لهم إلّا مَن كان منهم مسلمًا.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومَن يزعُم مِن العرب أنّ الملائكة بنات الله -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- إثرَ حكاية جناية عبَدة الأصنام بطريق عطف القصّة على القصّة.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المُفصِح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة. و"الإدّ" / بالكسر والفتح: العظيم المنكَر، والإدّة: الشِّدّة، و"أدّني الأمر وآدَني": أثقلني [٢٨و] وعظُم عليّ، أي: فعلتُم أمرًا منكَرًا شديدًا لا يقادَر قَدْره، فإنّ "جاء" و"أتى" يستعملان في معنى فعَل فيُعدَّيان تعدِيتَه.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾... إلخ، صفة لـ﴿إِدًّا﴾،[1] أو استئناف لبيان عِظَم شأنه في الشدّة والهَول. وقرئ: "يَكَادُ"[2] بالتذكير. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشقّقن مرّة بعد أخرى مِن عِظَم ذلك الأمر. وقرئ: "يَنْفَطِرْنَ"،[3] والأوّل أبلغ؛ لأن "تفعّل" مُطاوِع "فعّل" و"انفعَل" مُطاوِع "فَعَل"، ولأنّ أصل التفعّل التكلّف.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

٣ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: وتكاد تنشقّ الأرض ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: تسقُط وتتهدّم، وقوله تعالى: ﴿هَدًّا﴾ مصدر مؤكِّد لمحذوف هو حال مِن الجبال، أي: تُهدّ هدًّا أو مصدر مِن المبنيّ للمفعول مؤكِّد لـ﴿تَخِرُّ﴾ على غير الصدر؛ لأنّه حينئذ بمعنى التهدّم والخُرور، كأنّه قيل: وتخِرّ الجبال خرورًا، أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحاليّة، أي: مهدودة، أو مفعول له، أي: لأنّها تُهَدّ. وهذا تقرير لكونه إدًّا، والمعنى أنّ هَول تلك الكلمة الشنعاء وعِظَمها بحيث لو تَصوَّرَت بصورة محسوسة لم تُطِق بها هاتيك الأجرام العِظَام وتفتَّتت مِن شدَّتها، أو أنّ فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حِلمه تعالى لخُرِّب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على مَن تفوّه بها.

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ منصوب على حَذْف "اللام" المتعلّقة بـ﴿تَكَادُ﴾[1] أو مجرور بإضمارها، أي: تكاد السماوات يتفطّرن والأرض تنشقّ والجبال تخِرّ لأن دعَوا له سبحانه ولدًا. وقيل: "اللام" متعلِّقة بـ﴿هَدًّا﴾.[2] وقيل: الجملة بدل مِن الضمير المجرور في ﴿مِنْهُ﴾،[3] كما في قوله:

على جُـــوده لـضَـنّ بـالـمـاء حـاتِـمُ[4]

[٢٨ظ] / وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الموجِبُ لذلك أن دعَوا... إلخ.[5] وقيل: فاعل ﴿هَدًّا﴾،[6] أي: هدّها دُعاء الولد.[7] والأَولى هو الأوّل. و﴿دَعَوْا﴾ مِن "دعا" بمعنى "سمَّى" المتعدّي إلى مفعولين، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كلّ ما دُعيَ له ولدًا، أو مِن "دعا" بمعنى "نَسَب" الذي مُطاوِعه "ادّعى إلى فلان"، أي: انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُوا﴾ أو ﴿دَعَوْا﴾ مقرِّرة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقُّق مضمونها، أي: قالوا: اتّخذ الرحمن ولدًا،

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة. والقولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.
٤ مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢/١١٧.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٠.
٦ في الآية السابقة.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.

أو أن دعَوا للرحمن ولدًا والحالُ أنّه ما يليق به تعالى اتّخاذُ الولد ولا يُتطلّب له لو طُلب مثلًا لاستحالته في نفسه. ووَضْعُ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير للإشعار بعلّة الحُكم بالتنبيه على أنّ كلّ ما سواه تعالى إمّا نعمة أو مُنعَم عليه، فكيف يتسنّى أن يجانس مَن هو مَبدأ النِّعم ومُولي أصولها وفروعها حتّى يُتوهّم أن يتّخذه ولدًا؟

وقد صرّح به قوله عزّ قائلًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحد مِن الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلّا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبوديّة والانقياد. وقرئ: "آتِ الرَّحْمَنَ"[1] على الأصل.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: حصَرهم أو أحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد مِن حِيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، وكلُّ شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم آتٍ إيّاه تعالى منفردًا / مِن الأتباع والأنصار. وفي صيغة الفاعل مِن الدلالة على إتيانهم كذلك البتّة ما ليس في صيغة المضارع لو قيل: يأتيه، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذُكر فأنّى يُتوهّم احتمال أن يتّخذ شيئًا منهم ولدًا؟ [٢٩و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لمّا فُصّلت قبائح أحوال الكفَرة عُقّب ذلك بذِكر محاسن أحوال المؤمنين. ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: سيُحدث لهم في القلوب مودّة مِن غير تعرّض منهم لأسبابها سوى ما لهم مِن الإيمان والعمل الصالح. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ الموعود مِن آثارها. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أحبّ الله عبدًا يقول لجبريلَ عليه السلام: أُحِبُّ فلانًا فأحِبّه،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وطلحة والكَفَرتُوثي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٧.

فيُحِبّه جبريلُ، ثمّ ينادي في أهل السماء: إنّ الله أحبّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له المحبّةُ في الأرض».[1]

و"السين" لأنّ السورة مَكيّة وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثمّ أنجزه حين دجا الإسلام، أو لأنّ الموعود في القيامة حين تُعرَض حسناتهم على رءوس الأشهاد فيُنزع ما في صدورهم مِن الغِلّ الذي كان في الدنيا، ولعلّ إفرادَ هذا بالوعد مِن بين ما سيؤتَون يوم القيامة مِن الكرامات السنيّة لِما أنّ الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضادّ وتقاطُع وتلاعُن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، و"الباء" بمعنى "على". وقيل: ضُمّن التيسير معنى الإنزال، أي: يسرنا القرآن منزِلين له بلغتك.[2]

[٢٩ظ] / و"الفاء" لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة: بلِّغْ هذا المنزلَ أو بشِّر به وأنذِر فإنّما يسَّرناه بلسانك العربي المبين.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه مِن الأمر والنهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يؤمنون به لجَاجًا وعِنادًا. و"اللُّدّ" جمع "الألدّ"، وهو الشديد الخصومة اللَّجوج المعانِد.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ضمن وعيد الكفَرة بالإهلاك، وحثٌّ له عليه السلام على الإنذار، أي: قَرنًا كثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: هل تشعُر بأحد منهم وترى؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًّا، وأصلُ التركيب

---

[1] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٤/١١١ (٣٢٠٩)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٠٣٠ (٢٦٣٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٥٧؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦.

[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨١.

هو الخفاء، ومنه "رَكَز الرُّمحَ" إذا غَيَّب طرَفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المَخفيّ. والمعنى أهلكناهم بالكلّيّة واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحد ولا يُسمَع منهم صوت خفيّ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة مريمَ أُعطي عشرَ حسنات بعدد مَن كذّب زكريّا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها، وبعدد مَن دعا الله تعالى في الدنيا ومَن لم يدْعُ الله تعالى».[1]

---

[1] بلفظ قريب في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٢٢/١٧ (مريم، ١/١٩)؛ وبلفظه ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧/٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣٤٢/٢-٣٤٣. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أوائل جُمادى الأولى، سنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا ومصلّيًا ومسلِّمًا.